


الكتاب التاسع

# ماكس فيبر

# والبحث المضاد فى أصل الرأسمالية المعاصرة





الأستاذ الدكتور

**على ليلة**

جامعة عين شمس

المكتبة المصرية

٢ ش أحمد ذو الفقار - لوران الإسكندرية

تلفاكس: ٢٩٨-٥٨٤/ ٠٣ / ٠٠٢

محمول: ٠١٢/٤٦٨٦٠٤٩


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

سلسلة : نظريات علم الإجتماع
( الكتاب التاسع )

# ماكس فيبر

## و

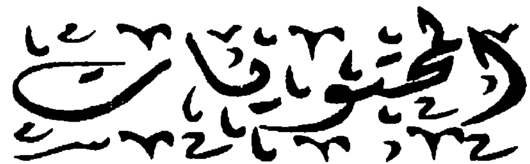
## البحث المضاد فى أصل الرأسمالية المعاصرة

دكتور
علي ليلة
أستاذ النظرية الإجتماعية - جامعة عين شمس




٢٠٠٤م

المكتبة المصرية
للطباعة والنشر والتوزيع
٣ ش أحمد ذو الفقار - لوران الإسكندرية
تليفاكس : ٥٨٤٠٢٩٨/٠٣/٠٠٢
محمول . ٠١٢٤٦٨٦٠٤٩



الصفحة



# الفصل الأول

## نظرية ماكس فيبر

## السياحة الفكري والواقعي



# الفصل الثاني

## البناء المنهجي

## لنظرية ماكس فيبر

**الصفحة**



# الفصل الثالث

النظرية الأجتماعية لماكس فيبر

رؤيتها للنظام الاجتماعي وتفاعلاته

## مقدمة :

يعتبر ماكس فيبر من علماء الاجتماع الذين قدموا تطوراً حقيقياً لهذا العلم علي المستوي النظري والمنهجي علي السواء. الأمر الذي جعل التنظير الفيبري ما زال مؤثراً حتي الآن، وله وطأته علي أفكار كثير من علماء الاجتماع.

وتكمن عبقرية ماكس فيبر في أنه قد حاول جمع الخيوط المتناقضة في نسيج واحد أكثر اكتمالاً وقوة. فعلي المستوي المنهجي نجد أن ماكس فيبر قد حاول أن يجمع معاً وجهة النظر التي تؤكد علي الإدراك الموضوعي للواقعة الأجتماعية، ومع وجهة النظر التي تؤكد علي ضرورة إدراكها إدراكا ذاتياً. أن يجمع معاً الاتجاه الواضعي الذي يري إدراك الواقعية الأجتماعية من خلال مؤشراتها الخارجية. التي تشير إلي طبيعتها الأساسية وبين الاتجاه المثالي الذي يري ضرورة إدراك معني الواقعة الاجتماعية بالنسبة للإنسان المشارك، وليس الباحث الذي يقوم بدراسة الظاهرة ومحاولة فهمها وتحليلها، وإذا كانت الوضعية قد أكدت علي السببية التي تربط الوقائع الاجتماعية ببعضها البعض، فقد حاول فيبر أن يكمل هذه السببية الخارجية، بإدراك الواقعة من الداخل، أي بالتعرف علي معناها.

ويتصل بذلك علي المستوي العيني أن ماكس فيبر يعتبر هو الباحث السوسيولوجي الذي أكد أن الواقعة الاجتماعية يمكن أن يسببها أكثر من عامل أو متغير واحد. وأن الواقعي تنتمي في العادة لجمع من المتغيرات.

ولتأكيد ذلك نجده يذهب إلي القول بأنه إذا كانت الماركسية قد أكدت علي المتغيرات الاقتصادية باعتبارها المتغيرات المسئولة عن ظهور الرأسمالي، فأنه من الممكن نسبة ظهور الرأسمالية إلي مجموعة من القيم الدينية ذات الطبيعة التطهيرية والتي انطلقت من البروتستنتية بالأساس. وعلي هذا النحو فلم يكن هدف فيبر التأكيد علي العامل الديني في مواجهة

العامل الإقتصادي عند ماركس، بقدر ما كان هدفه الأساسي يتمثل في التأكيد علي إمكانية تعدد المتغيرات المسببة للظاهرة أو الواقعة الأجتماعية.

ومن مظاهر الالتقاء التي صاغها فيبر أيضاً بين العناصر المتناقضة هو ذلك التأليف بين الباحث الإنسان في المجتمع الذي توجه سلوكياته بأخلاق الاعـتقاد ، وبين الإنسان السياسي الذي توجهه أخلاق المسئولية، وإذا كانت الـنظريات الوضعية قد أكدت علي انفصال النموذجين عن بعضها، فقد أكد فيـبر علي احتمالية اجتماعهما في إنسان واحد، السياسي العالم الذي يستطيع أن يلعب دور مستشار الأمير، وهو الدور الذي كان يطمح إليه ماكس فيبر.

كذلك نلمس عند ماكس فيبر مظاهر القدرة علي جمع المتناقضات في كـل متكامل من خلال تحليله لنماذج السلطة، وكيف يمكن أن تتحول السلطة الكارزمـية إلي سلطة منظمة ثم سلطة تقليدية، حيث رأي أنه من الممكن أن تشـكل هـذه الأنماط الثلاثة مراحل متعاقبة لسلطة واحدة. وهو الأمر الذي نجـده كذلـك في الأفعال والسلوكيات البشرية، التي يأتيها الفاعل في السياق الاجتماعي.

ويرتبط بذلك قدرة ماكس فيبر العبقرية في تحليل الظاهرة الأجتماعية علـي مستويات متباينة للغاية، فقد كان باستطاعته أن يمارس التحليل العلمي لأي ظاهـرة من الظواهر الإجتماعية علي مستوي الخطوط العامة والشاملة، وفـي ذات الوقـت كانـت لديه إمكانية علي تحليل أي واقعة اجتماعية علي مسـتوي التفاصيل الجزئية الدقيقة، مع قدرة فذة علي خلق روابط وعلاقات عضوية بين مستويي التحليل.

ولعل هذه القدرة علي جميع المتناقصات في كل واحد ومتكامل ترجع مـن ناحـية إلي العبقرية الفذة لماكس فيبر، وترجع في ذات الوقت إلي أن موقفـة الفكري كان دائماً في المنطقة الواقعة بين الفلسفة الوضعية والفلسفة المثالـية، حيـث كـان لديه ميل حاد وثاقب لجمع القضايا التي تنتمي لهذين

التباريـــن والتألـــيف بيـــنها في كل واحد ومتكامل، وهو الأمر الذي نعرض لبعض أبعاده في الفصول الثلاث التالية.

حيـــث حاولـــنا فـــي الفصـــل الأول استعراض العلاقة بين النظرية الأجتماعـــية لماكس فيبر وبين سياقها الاجتماعي إذ حاولنا من خلاله تلمس التـــيارات الفكـــرية والأحداث الواقعية التي تشكلت في رحمها نظرية ماكس فيبر، بينما سعينا في الفصل الثاني لتحديد البناء المنهجي لنظرية ماكس فيبر بمعنـــي توضيح المباديء المنهجية التي تشكل قاعدة بناء هذه النظرية. وفي الفصل الثالث والأخير حاولنا تحديد المتغيرات المستقلة والوسيطة التي لعبت دورها في تأسيس النظام الرأسمالي حسبما أكدت ذلك نظرية ماكس فيبر.

ولقد بدأنا بهذا المؤلف المحدود الصفحات والذي ننظر إليه باعتباره يشكل قاعدة لاستكمال بناء نظرية ماكس فيبر في المجتمع، ونتمني العون من الله أن يعينا علي استكمال مشروعنا الفكري في هذا الصدد، والله الموفق أولاً وأخيراً.

علي ليلة

# الفصل الأول
# نظرية ماكس فيبر
# السياق الفكري والواقعي

**تمهيد :**

أثـــرت مكانـــة مـــاكس فيبر علي خريطة علم الاجتماع علي طبيعة القضايا التي أختار معالجتها، وكذلك علي طريقة أو أسلوب المعالجة، فقد بدأ فيـــبر يحتل مكانته في ظل اتجاهات نظرية بعضها له طابعة الفلسفي المجرد غـــير الملتزم بتفاصيل الحياة الواقعية، بينما اقترب البعض الأخر من الواقع في محاولة دراسته وإعادة تنظيم معطياته للوصول إلي مجموعة من القضايا والتعميمات النظرية العامة التي تسعي لتشخيص تفاعله. فقد نشأ ماكس فيبر من ناحية في ظل الفلسفة المثالية وتعرض لتأثير أفكارها .فأخذ عنها تأكيدها علـــي الأفكار والقيم والثقافة عموماً باعتبارها المتغيرات المؤثرة في الواقع الاجتماعـــي. وتحـــت تأثـــيرها كذلك أكد أن إدراك الجوهر أو المعني هو المدخـــل الحقيقـــي لـــتحديد طبـــيعة الواقعة. وهو قد تعرض لتأثير الفلسفة الوجوديـــة، فأخذ عنها تأكيدها علي الإنسان والإرادة الإنسانية وفاعليتها في تأسيس الواقع الاجتماعي وتحديد طبيعته. وهو قد أكد – تحت تأثير الوضعية – علـــي العلاقـــات الســـببية بين الظواهر الأجتماعية، وأيضاً علي ضرورة الوصول إلي القوانين التي تحكم اطراد هذه الظواهر في استقرارها وتغيرها.

علـــي خـــلاف ذلـــك تفاعل ماكس فيبر مع النظرية الماركسية حول طبـــيعة المتغـــيرات الحاكمـــة للواقع الإجتماعي، وأيضاً حول طبيعة النظام الرأســـمالي. كذلك تعرض لكثير من القضايا التي تعرض لها إميل دوركيم، كقضـــية الحتمـــية الإجتماعـــية، كقضية الحتمية الأجتماعية، وإدراك الوقائع الاجتماعية من الخارج والتحيز القيمي، وتشيء الحقيقة الأجتماعية.

وقــد قــدم ماكس فيبر وجهة نظر محددة بشأن مختلف القضايا التي أثارتها الاتجاهات النظر به التي حاورها أو تعرض لتأثيرها. بحيث طور في النهاية موقفــا نظــريا وأن كانــت له علاقته بهذه الاتجاهات النظرية إلا أنه أمتلك استقلاله وطابعه الخاص.

## أولاً: ماكس فيبر : هويته واهتماماته:

تمــيز الإطار النظري لماكس فيبر بطبيعته الشاملة، فقد كان ماكس فيبر من الطــراز الــذي يتــناول بالتحلــيل فكرة بسيطة، ويستنتج منها حتي أقصي اســتقطاباتها. وقــد كــان يــتوقف في تحليلاته عند مستوي الخطوط العامة الشــاملة، ناظراً بنوع من الازدراء إلي التفاصيل الدقيقة التي قد تهتم بها أية دراســة واقعــية. ومــن ثم فغالباً ما نظر إليه كفيلسوف ومنظر، كما يدعي نــاقدوه، حيث كان يعمل دائماً علي- حد قولهم – علي تطويع الحقائق حتي توافــق فرضــياته النظرية. في مواجهة ذلك نجد من يؤكد قدرة ماكس فيبر علــي صــياغة أفكاره بطريقة واضحة للغاية، وبخاصة حينما يتعلق الأمر بقضــية خلافية. بل أن باحث يتعرض لقراءة كتاباته سوف يدهش من حجم المــادة التاريخــية المفصلة، تلك التي كان له القدرة علي استيعابها، وأيضاً لتــنوع المجالات الفكرية التي كان قادراً علي تغطيتها. ذلك يؤكد أن ماكس فيــبر كــان يمتلك عقلية موسوعية من النادر أن نجد نصيراً لها في العصر الحديــث[١]. ونستطيع أن نؤكد أن ماكس فيبر بحق أكثر العلماء الاجتماعيين تأثــيراً في النصف الأول من القرن العشرين، حيث شكلت أفكاره نقطة بدء لكثــير مــن علمــاء الاجــتماع المعاصرين، نذكر من بينهم كارل مانهايم K.Mannheim، هانــز سبير Hans Speir، هانز جيرت Hans Gerth ، تــالكوت بارســونز T.Parsons ، روبرت ميرتون R.K.Merton وسي. رايت ميلز C.Wright Millis ، وكثيرين غيرهم، بل أن كثيراً من القضايا التي ما زالت الآن موضع تناول تعتبر استمرارية لبداية أسسها ماكس فيبر .

مــن ذلــك نظــرية فــي الــتدرج الاجتماعي، ودراساته في البيروقراطية والتنظــيمات الاجتماعــية الكبــيرة، كذا دراساته في السلطة الشرعية وعلم الاجــتماع القانوني، والسياسي ، والديني ، وعلم اجتماع الموسيقي[٢] . برغم الإطــار السياسي الذي عاش في نطاقه ماكس فيبر ، حيث ولد الأب ليبرالي يتبع الحزب الليبرالي القومي من حيث انتماؤه السياسي[٣]، فأننا نجد لديه ميلا نحو الأهتمام بالنواحي العلمية بدرجة تفوق اهتماماته السياسية. أما فيما يتعلق بــتدرجه المهنــي فنجد أنه قد عين محاضراً للقانون بجامعة برلين أولاً، ثم أصــبح اســتاداً للاقتصــاد بجامعــة فرايبرج Freiburg ثم استناذا لكرسي الاقتصاد بجامعة هيدلبرج Heidelberg حيث خلف الاقتصادي الشهير كينز Herl Knies ، وفــي عــام ١٩٠٠ نجده قد عاني من انهيار عصبي استمر حتي قيام الحرب العالمية الأولي، حيث شفي منه ثم استمر في مزاولة نشاطه المهنــي[٤] . ولقد أثرت ملامح الحياة هذه ، سواء ما يتعلق بخلفيته السياسية أو بتفكيره الموسوعي علي طبيعة انتقائه لقضاياه موضع الاهتمام والدراسة. إذ يلاحظ تميز القضايا موضع اهتمامه بقدر من التنوع من حيث كونها ذات طــابع سياســي أو علمــي، أو تقــع علي مستويات عينية أو منهجية، هذا بالإضــافة إلــي انــتماء هذه القضايا لنطاقات فكرية عديدة كفلسفة المعرفة، والــتاريخ الاقتصادي، والتاريخ الديني ، وعلم الاجتماع السياسي، وذلك إلي جانــب تمــيز هذه القضايا بكونها خلافية، أو ذات طبيعة مفصلة معضلة ، طــرحها النظرية السيوسيولوجية دونما أن تطرح إجابات لها، وقد كانت هذه هــي مهمــة فيــبر في كثير من الأحيان، ولتوضيح ذلك نعرض أمثلة لهذه القضايا. وتتعلق أول هذه القضايا بمكانه العلوم الإنسانية بين العلوم المختلفة التــي ســميت أحياناً بالعلوم التاريخية، وأحياناً أخري بالعلوم الاجتماعية ، وأحــياناً ثالثة بالعلوم العقلية أو العلوم الثقافية بين العلوم – حيث شكلت هذه القضــية موضــعاً خلافيا في إطار مختلف النظم العقلية لهذه المرحلة. ففي

الاقتصاد قام خلاف بين شموار Schmoller ومنجر Menger. وفي نطاق التاريخ قام الخلاف بين لامبرشت Lamprecht ومير E.Meyer وفون بيلوف Von Belov وفوسلر Vossler. أما بين الفلاسفة فقد شارك كل من دلتاي Dilthey ، وفندلباند Windelband وركرت Rickert في هذا الخلاف، خلاصة القول فيما يتعلق بهذه القضية أدرك فيبر أن الوضعية رأت ضرورة اتحاد هذه العلوم الطبيعية بينما رأت المثالية ضرورة أن تتمتع هذه العلوم بنوع من الاستقلال الخاص(٥). في مواجهة هذه القضية حاول فيبر أن يصوغ تألفا انتقائياً يحاول في إطاره المزاوجة بين الكانتية والكانتية المحدثة من ناحية وبين المثالية والمثالية المحدثة من ناحية أخري. بل أننا نجده بالتحديد يحاول أن يؤلف بين وجهتي نظر ركرت ودلتاي في هذه الصدد. فبينما ذهب الأخير إلي ضرورة الفصل الحاد بين المعلوم الطبيعية والعلوم الثقافية، ذلك لأن التفكير الإنساني في كل منهما له طبيعته ومنهجه. فبينما تتناول العلوم الطبيعية الحقائق، ومن ثم يتخذ تفكيرها طابع التفسير Explanation نجد أن العلوم الثقافيه تعالج المعاني ويتخذ تفكيرها طابع الفهم Understanding ، وبينما يهدف التفسير إلي تأسيس القوانين السببية ويقترب من موضوع بحثه من الخارج نجد أن الفهم يحاول وصل معني بمعني آخر يتعلق بذات الموضوع، بل أننا نجده يستوعب موضوعه مباشرة من خلال الحدس. في المقابل نجد ركرت– وهو الكانتي المحدث – يتخذ موقفاً مختلفاً فيما يتعلق بتصنيف العلوم، إذ نجده يؤكد أن مجال العالم هو تفسير الظواهر سواء تعلقت بالعالم الإنساني أو الطبيعي، فالظواهر ظواهر والعلم علم، وهو يعتقد أن الخلاف ينبغي أن يكون بين التاريخ والعلم، ذلك أن العلم هو تحليل الطبيعة بالنظر إلي القوانين السببية، بينما التاريخ هو تحليل الطبيعة كنمط لأحداث مفردة، وبينما تعتبر القوانين أكثر المفاهيم دقة في العلم، نجد أن تنوع القيم وفرديتها من أهم تصورات التاريخ جوهرية(٦)

بالنظر إلي هذين الموقفين بجد أن فيبر يتخذ موقفاً انتقائياً فيه من المثالية وفيه من الوضعية، فعلم الاجتماع – لديه – من حيث منهجيته ومن حيث طبيعة إدراكه، له ملامحه المحددة ومستوياته في التجريد التي تؤكد اهتمامه بإدراك العلاقات السببية بين الظواهر، إلا أن هذا لا ينفي أن إدراك معني الظاهرة يخلع عليها معني إنسانيا خاصاً قد لا يتوفر لظواهر الطبيعة الأخري. أما القضية الخلافية الثانية التي واجهها ماكس فيبر فتتعلق بطبيعة الدور الذي ينبغي علي عالم الأجتماع القيام به. فلقد رأت المثالية المحدثة أن العالم الذي نعيشه ينبغي أن يكون مجالاً للنشاط والعمل ، بينما تري الكانتية المحدثة أن العالم ليس إلا موضوعاً للمعرفة، الأولي تؤكد أن العلم هو السياسة وهو الفن أو النظرية القادرة علي إحداث تغييرات محددة فيه، بينما تري الثانية أن العلم ينبغي أن يحقق إمكاناته التفسيرية محرراً من أحكام القيمة ومن التفصيلات الشخصية(٧) ، وبالنظر إلي اهتمامات فيبر الشخصية ورغبته الدائمة في أن يلعب دوراً سياسياً أو يؤدي دور مستشار الأمير علي ما يذهب ريمون آرون، وأيضاً بالنظر إلي اهتماماته العلمية نجده يهتم دائماً بالشروط التي يمكن أن يكون بها العلم التاريخي أو السوسيولوجي موضوعياً، هذا إلي جانب اهتمامه بالشروط التي يمكن أن يكون فيها الفعل السياسي ملائماً(٨). ويؤكد ريمون آرون أن استكشاف فيبر الدؤوب لماهية النموذج المثالي للرجل السياسي والنموذج المثالي للعالم؟ وكيف يمكن أن يكون الأنسان استاذاً وسياسياً في ذات الوقت، كان استكشافاً شخصياً بقدر ما كان فلسفياً(٩). ولقد انعكس هذا التأرجح في موقفه ورؤيته لطبيعة السلوك الإجتماعي من حيث مجالاته الأساسية وضوابطه. إذ نجده يؤكد أن هناك مدخلين لإدراك السلوك. الأول سياسي، وفي إطاره نجده يحاول توضيح ما يمكن أن يسمي بتناقض الشرعيات الحاكمة للسلوك، أما المدخل الثاني فهو علمي حيث يحاول الباحث في إطاره إدراك مختلف الاتجاهات الدينية ومدي

تأثيرها علي سلوك الإنسان، وبخاصة سلوكه الاقتصادي. ويرجع ماكس فيبر تعدد مداخل إدراك الفعل إلي عدم إدراك التناقض في طبيعة الأخلاق الموجهة للسلوك. في إطار ذلك نجده يفارق بين أخلاق المسئولية Morality of Responsibility وأخلاق الاعتقاد Morality of Convictions إحداهما تمثل امتداداً لفلسفة ميكيافيللي والثانية ترجع أصولها لفلسفة كانت. أما الأولي – أخلاق المسئولية – فتتكون من تصور الإنسان لنفسه في المجتمع وتخيله لأية نتائج مترتبة علي أية قرارات قد يصدرها. من هنا نجده يحاول أن يعدل من نسيج الأحداث أو تتابعاتها ، بحيث أنه قد ينجز عملاً يساعد به تحقيق نتائج أو متتاليات معينة مرغوب فيها. ويؤكد فيبر أن الإنسان في هذا النطاق لا يتورع عن خداع الآخرين لتحقيق غاية معينة تتعلق بالوجود الأساسي للجماعة، وفي هذا الإطار غالباً ما كان يستخدم مثال الإنسان الذي صاغه ميكيافيللي، والذي قد يضحي بروحه من أجل إنقاذ المدينة. ذلك يعني أن هناك أخلاقيات عليا تتجاوز أخلاق الإنسان العادي وهي تحكم في العادة أعمال رجل الدولة. فأخلاق المسئولية تتميز بكونها تبحث عن الفاعلية، أو الوسيلة الملائمة لتحقيق الهدف، ويصبح ذلك هو المعيار الوحيد للموافقة عليها[١٠] . أما أخلاق الاعتقاد فتختلف عن أخلاق المسئولية في أنها التي تدفع الفاعل للتصرف وفقاً لمشاعره ومقتضيات ضميره، دونما اعتبار للمتتاليات الكامنة أو الصريحة، قد يعارض الفرد الجماعة، غير أن سلوكه هذا يظل جوهرياً من حيث كونه يعبر عن ضميره وقناعاته الأساسية[١١]. ويكشف تحليل الممايزة بين نمطي الأخلاق اللذين طرحهما فيبر كموجهات للفعل عن ثلاثة ملاحظات أساسية، الأولي أن أخلاق المسئولية تذكرنا إلي حد كبير بأفكار روسو عن الإرادة العامة باعتبار أن الحاكم يعبر عن إرادة عليا وأخلاقيات وقناعات قد تتجاوز قناعاته الفردية وضميره الخاص. غير أن ذلك يختلط ببعض الملامح العقلانية التي

تمـــيز الموقف النفعي، حيث يتميز السلوك الاجتماعي والممارسات السيسة لديه بأخلاقيات ذات طابع فردي تكتسب الوسيلة في إطارها مشروعينها ليس مـــن طابعهـــا الأخلاقـــي ولكن من قدرتها علي تحقيق الغاية، أما الملاحظة الثانية فتتمثل في أن المقابلة بين أخلاق المسئولية وأخلاق الاعتقاد كموجهات للســـلوك تعـــيد أثـــارة قضية موجودة فعلاً تتعلق بمصدر السلوك والأخلاق الجمعـــية، هـــل الإنســـان بضميره الفردي هو الذي يخلق الجماعة كامتداد لأخلاقـــه الفـــردية. أم أن الضـــمائر والأخلاقيات الفردية ما هي إلا انعكاس لأخـــلاق مجتمعـــيه عليا،سابقة عليها وهي التي تتولي خلقها. أما الملاحظة الثالـــثة فـــنؤيد فـــي إطارهـــا ريمون آرون حينما ينتقد الفصل بين أخلاق المسئولية وأخلاق الاعتقاد. مؤكداً أن أخلاق المسئولية غالباً ما تكون ملهمة بـــأخلاق الاعـــتقاد، ما دامت الأولي تهتم بالسلوك الذي يمتلك الفاعلية، بينما تركز الثانية علي النمط المثالي الذي يظل السلوك في إطاره معقولاً (١٢).

وتعتـــبر قضـــية الضبط والنظام الاجتماعي المجال الثالث الذي يشكل نطاق اهـــتمام مـــاكس فيبر في إطار هذه القضية نجد وجهة النظر التي تؤكد علي الإنســـان الإجتماعي كخالق للمجتمع، بينما تناقضها وجهة نظر أخري تنطلق مـــن متضمنات النظام الإجتماعي. حيث تنظر إلي الإنسان كنتيجة للمجتمع. ويؤكد فيبر أن الاهتمام بقضية الضبط يدفع إلي الاهتمام بتأسيس علم اجتماع الـــتفاعل الإجتماعـــي ( فـــي مواجهـــة علـــم الإجـــتماع الذي يهتم بالنسق الإجتماعي). وفي إطار علم الإجتماعي السلوك نجد أن الإنسان وهو يتفاعل مـــع الآخريـــن فـــي محاولـــته الســـيطرة علي السلوك فأنه يفرض المعاني والـــتحديدات المتعلقة بالفعل علي الموقف الذي يضمه والآخرين. وبذلك فأن تصـــور النسق الإجتماعي كنتيجة للتفاعل يتحدد بالنظر إلي علاقات الضبط بيـــن المشـــاركين فـــي إطاره (١٣). من هنا تعتبر قضية الضبط ذات أهمية جوهرية بالنسبة لماكس فيبر، ويتضح ذلك من اهتمامه الشامل بهذه القضية،

وخاصة حينما يتحدث عن البيروقراطية كظاهرة أو خاصية تسود بشكل شامل مختلف جوانب الحياة الحديثة (١٤). ولأن ماكس فيبر كان يؤكد دائما علي اعتبار النظام أو النسق الإجتماعي نتيجة للوجود الفردي الفاعل والمتفاعل ، فأنه لكي يحفظ لهذا الوجود حياته وحيويته، فأنه كان عليه أن يؤكد علي قضية الضبط بشكل عام والبيروقراطية بوجه خاص، وذلك باعتبارهما آليات تحافظ علي تساوق مجموع الأفعال الفردية بحيث يخلق تداخلها وجوداً مجتمعا شاملاً. وتقع القضية الرابعة علي المستوي المنهجي من تحليلاته. وتتعلق أساساً بمدي موضوعية التعبير عن الحقيقة الواقعية. في إطار ذلك نجد أن لفيبر عدداً من التحفظات علي كل من الموقف المثالي والوضعي في هذا الصدد. غير أننا نجده يجنح نحو الموقف الوضعي حينما يؤكد أن الظواهر الأجتماعية هي كذلك مثلما تبدو لنا من وجهة نظر معينة، أي أنها تعبر عن أحد جوانب الحقيقة فقط، ذلك لأن الباحث في إدراكه للحقيقة يختار عناصرها المكونة أو المؤكدة لرؤيته من عناصر كثيرة. وبذلك فأننا نجده يعلن وجهة نظر أكدها جونار ميردال فيما بعد، حينما أكد أننا يمكن أن نحقق قدراً عالياً من الموضوعية إذا نحن أعلنا بوضوح عن موقفنا النظري والقيمي(١٥) . بالإضافة إلي ذلك يؤكد فيبر أن الرؤية العلمية تظل ناقصة دائماً ما دامت الحقيقة الواقعية لا نهائية. وفي هذا الصدد نجده يرفض الرأي القائل بأن العلم قادر علي إدراك جوهر الظواهر من أجل تنظيمها في إطار نسق عام قد يعتبر انعكاساً أميناً للحقيقة. لأن الأخيرة لا نهائية بطبيعتها، بل أنه من المستحيل وجود مفهوم قادر علي التعبير عن التنوع الذي لا نهاية له فيما يتعلق بالظواهر موضع الاهتمام. ومن ثم فمعرفتنا بالحقيقة تظل افتراضية دائماً. ومن هنا يصبح النموذج المثالي ليس إلا أسلوباً أو مثالاً للانتقاء علي المؤرخ أو عالم الاجتماع أن يؤسسه وينجز بحثه وفقاً له . ما دام كلاهما يقترب من الحقيقة من وجهة نظر معينة تتحتم أساساً

بواسطة توجيهاته القيمية[١٦].ما سبق يشكل مجموعة القضايا المنهجية موضع اهتمام السياق الفكري في الفترة التي عايشها ماكس فيبر، ومن ثم فقد شكلت الإطار الذي تحققت فيه إسهاماته المنهجية التي يمكن تنظيمها في إطار أربعة مجالات أساسية.

١- دراساته المنهجية والفلسفية والنقدية، وهي دراسات تتعلق أساساً بالعلوم الأجتماعية والتاريخ وعلم الاجتماع. وتتميز هذه الدراسات بأنها ذات طابع فلسفي ومعرفي تتناول مقولات مثل وضع الإنسان في التاريخ، والعلاقات بين العلم والسلوك الإنساني . وهي مضمنه في مؤلفاته المتعلقة بدراسات النظرية والعلم.

٢- إنجازاته التاريخية، كدراسة علاقات الإنتاج في زراعة العالم القديم، والتاريخ الاقتصادي العام بالإضافة إلي بعض الدراسات الخاصة ببعض القضايا الاقتصادية في كل من أوربا عامة وألمانيا خاصة، أو بالعلاقة بين الفلاحين البولنديين والطبقات الألمانية الحاكمة.

٣- دراساته في علم الاجتماع الديني، تلك التي بدأت بدراسته عن العلاقة بين الأخلاق البروتستنتية وروح الرأسمالية. ثم تحليلاته المقارنة للديانات الكبري وطبيعة علاقة التأثير المتبادل بين الظروف الاقتصادية والمواقف الأجتماعية من ناحية وبين العقائد الدينية من ناحية أخري.

٤- دراساته في إطار علم الإجتماع العام، وتشكل دراساته الأساسية، وقد قام بانجازها في أعقاب الحرب العالمية الأولي، في أعقاب شفائه، وتقع في إطار علم الإجتماع العام ويضنمها مؤلفة الاقتصاد والمجتمع[١٧].

## ثانياً : ماكس فيبر والحوار مع المثالية والوضعية:

كـــان للأنســـاق الفلســـفية التي شهدت مولد النظرية السيوسيولوجية وطأتهـــا علـــي تفكـــير ماكس فيبر. حيث تعرض لذات القضايا التي كانت موضـــعها للحـــوار خلال هذه الفترة، وهي تلك المتعلقة بتصنيف العلوم أو المـــنهج الملائم لإدراك الحقيقة موضع الاهتمام، ثم مدي اكتمال الإلمام بهذه الحقيقة، وما هي طبيعة المعرفة الناتجة عن إدراكنا لها. وفي حواره مع هذه الأنساق الفلسفية نجده يرفض المواقف الأستقطابية ذات الطابع الدوجماطيقي، ومن ثم فقد أدرك أن جهده يقع أساساً في النطاق المعتدل لأفكار كل من هذه الأنساق، محاولاً بذلك تأسيس منهج عقلاني ملائم لإدراك الحقيقة الأجتماعية بكفـــاءة تشـــهد بتوفير الفهم المتكامل لأكثر عناصرها جوهرية. وفي إطار عملية الحوار الانتقائي لأفكار كل من هذه الأنساق النظرية نجد أن له اتفاقاته واخـــتلافاته معهـــا علي عدة مستويات. وفيما يتعلق بالمثالية نجده يوافق منذ الـــبداية علي الفصل الحاد الذي أسسه كانت بين الحقائق والقيم. فالقيم ليست حقـــائق واقعية ملموسة ولا هي عناصر ترنسندنتالية، ثم يذهب إلي أن القيم عـــادة ما تخلها قرارات بشرية تختلف نوعياً من الإجراءات التي يدرك من خلالهـــا العقـــل واقعه تأسيساً للصدق قيمة في ذاته- علي ما تذهب الكانتية المحدثـــة – غير أنه ينبغي أن يكون واضحاً أن ثمة خلافاً أساسياً بين النظام العلـــم ونظام القيم، فجوهر الأول يتمثل في تعريض الحقائق للعقل والأسباب والبراهين، بينما يكمن جوهر الثاني في التأكيد علي الاختيار الحر[١٨] ، فليس ثمـــة إنســـان مفـــروض علـــيه أن يوافق علي قيمة لا يعتقد فيها عن طريق البرهـــنة. ولتوضيح ذلك نعرض لطبيعة حواره مع اثنين من مفكري النزعة المثالـــية أحدهمـــا كارل يسبرز الذي ينتمي إلي الجناح الفلسفي في فرضياته الوجوديـــة. أمـــا الآخـــر فهـــو جـــورج زيمـــل الـــذي ينتمي إلي المثالية السوسيولوجية. أما فيما يتعلق بعلاقته بكارل يسبرز karl juspers فنجده يأخذ

عـــنه فكرة الفهم Comprehension التي أدت دورا هاما لديه. إذ يكمن جوهر علــم الـــنفس المرضي عند يسبرز في الفصل بين التفسير والفهم. إذ يتفهم انمحلـــل النفســـي الحلم ، أو العلاقة بين خبرة معينة في الطفولة وبين نشأة المرضـــي العصبي. ذلك يعني – علي ما يذهب يسبرز وجود نوع من الفهم المباشـــر للمعانـــي فـــي المســـتوي الأول للشعور. وبذلك يمكن القول بأن الســـلوكيات الإنســـانية يمكـــن فهمها في إطار سياقات معينة، أما وراء هذه الســـياقات فـــأن العلاقـــة بين حالة المريض العقلية وبين حالته الفيزيقية أو النفسية لا يمكن إدراكها. استناداً إلي ذلك يؤسس فيبر أفكاره المتعلقة بتشكيل السلوك الاجتماعي لنطاق شامل يمكن إدراك طبيعته يتفهم مناظر للتفهم الذي يحققـــه عالم النفس بالنسبة لسلوك الآخرين أو حالتهم العقلية. ومن هنا يحذر فيـــبر مـــن ضـــرورة الوعـــي بعـــدم اختلاط التفهم السوسيولوجي بالتفهم السيكولوجي(١٩).

أمـــا علاقـــة مـــاكس فيبر بجورج زيمل فترجع إلي اهتمام الأخير بصياغة بناءات صورية تماثر إلي حد كبير، من وجهة نظر البعض، النماذج المثالية التـــي تولـــي مـــاكس فيبر صياغتها. ففي انتقال فيبر من الحديث عن الفعل والتفهم verstehen إلي الحديث عن العلاقات الإجتماعية. حدث انتقال مماثل فـــي منظور فيبر كان له دور جوهريٌ في نسقه الفكري. ذلك أن فيبر لم يعد يركز علي مضمون الفعل البشري كما يبدو لفهم الفاعل الذاتي. وإنما أصبح يـــتحدث عن أشكال الحياة الإجتماعية، وهو ما دفعه إلي الساحة التي شكلت نطـــاق الإســـهام الرئيسي لجورج زيمل. في إطار ذلك نجد أن فيبر يرفض تصور زيمل لعلم الإجتماع الصوري كما يراه الأخير. بل أنه يرسخ اختلافه معـــه حيـــنما يذهب إلي أن فكرة التفهم ذاتها ترتكز علي الاهتمام بمضمون السلوك وليس علي بنائه الشكلي(٢٠). ومع ذلك يذهب تنبروك Tenbruck في مقـــال لـــه عن المفاهيم الصورية لجورج زيمل إلي القول بأن فيبر وزيمل

يشـــتركان في تأسيس مشروع نظري متماثل، فالأشكال الصورية عند زيمل شـبيهة بالـــنماذج المثالـــية لدي فيبر. بل أننا أحياناً ما نجد فيبر يتحدث عن الأشـــكال الأجتماعية منفصلة بذات أسلوب التحليل الذي يستخدمه زيمل. كما أن مجالات الاهتمام والتحليل التي أختارها فيبر هي ذاتها التي بدأ بها زيمل. ومـــا يـــبدو أن فيـــبر قد كشف عنه في هذا الأتجاه يتصل بأن اتجاه الإنسان وتوجـــيهه نحـــو الآخر يعتمد أساساً علي الجوانب الصورية للسلوك وعلي العلاقـــة التي له بالآخر. ويؤكد فيبر أنه بدون الاستغراق في المفرد الواقعي التاريخـــي فـــأن علـــي عالم الاجتماع أن ينجز جهداً يتعلق بتأسيس النماذج Models الخاصـــة بالأشكال الاجتماعية ذات الصلة بالعلاقات الاجتماعية أو ببـــناء الجماعة[٢١]. غير أنه برغم أن تأسيس النماذج المثالية يتم بالنظر إلي انتقاء عدد محدود من عناصر الكلية موضع البحث فأنه ليس من الضروري أن تكون هذه العناصر من حيث انتقاؤها أو تأسيسها في بناء النموذج المثالي ذات طـــابع صـــوري، بل أن من أهم مقاصد فيبر في هذا الصدد ألا تكون الـــنماذج المثالـــية ذات طـــابع صوري. بالإضافة إلي ذلك فأن لفيبر اتفاقاته واختلافاته مع بعض الأفكار المثالية .

ففـــيما يتعلق بتصنيف العلوم الذي أسسته المثالية نجد أن فيبر لا يتفق معها في اختلاف العلوم الطبيعية عن العلوم الثقافية باعتبار أن المنهج في الأخيرة لـــه طبيعته المباشرة بينما في الأولي له طبيعته غير المباشرة. من هنا نجده يؤكـــد للحدس دور في كل من العلوم الطبيعية والثقافية علي السواء. ومن ثم فالإدراك المباشر في العلوم الثقافية ليس أكثر منه العلوم الطبيعية. ثم يصعد خلافـــه علي هذه الجبهة حينما يؤكد أن دور العلم يكتمل في مجال المعطيات الثقافية حينما يتمكن من تأسيس الارتباطات السببية [٢٢]. ومع ذلك فهو يتفق مـــع المثالـــية فيما يتعلق بإدراك المعني كدور أساسي بالنسبة للعلوم الثقافية. فهدف العلوم الثقافية هو أن تدرك المعني المتصل بإدراك مضمون العلاقات.

ثــم يذهــب إلــي أن علاقــات المعنـــي هي تلك التي نكتشفها بين الدوافع والتصرفات Acts أو بين الوسائل والغايات. وهي علي هذا النحو تتضح في سلوكنا، وأن علي علم الاجتماع التفسيري أن يكشف عنها في سلوك الآخرين كمــا يكشف عنها في سلوكنا نحن(٢٣). ويتأكد ارتباط فيبر بالموقف المثالي حيــنما يؤكــد – مــتفقاً في ذلك مع دلتاي – أن معني الواقعة لا يتطابق مع القوانيــن التــي تحكمها، فالأولي تتعلق بالمفرد بينما يرتبط الأخير، إلي حد كبــير، بالأطــراد. ومن هنا فكلما كان القانون عاماً، كان أقل انطباقاً(٢٤)، ثم يؤكــد أن تفســير الأحداث أو الوقائع سوف يصبح كافياً من الناحية السببية، طالمــا أن ثمة احتمالية في دوام حدوثها بنفس الأسلوب، الذي يحدده التعميم المؤسس من خلال التجربة(٢٥).

تبقــي مســألة هامة وأخيرة كان لفيبر مع المثالية في إطارها اتفاق كبير، إذ نجده يقف إلي جانب المثالية في تأكيدها علي أن الموضوع الأساسي للعلــوم الثقافــية ينبغـــي أن يكون الروح الإنسانية، هذه الروح التي تخضع لعملــية مستمرة من التطور والتفسير وهي العملية التي ينظر إليها المثاليون علـــي أنهــا ذات طابع خلاق أساساً(٢٦). وأن كان هيجل قد جعل من الروح المطلقــة أو العقــل الشــامل أو الله أساســاً لهذا العالم، تحكم حركته وثباته وتطــوره نحو الاكتمال بحيث يتحقق كمال الإنسان إذا جسدت الروح نفسها في الواقع الإنساني. فأننا نجد أن ماكس فيبر قد انتقلت إليه هذه الفكرة بكامل ملامحهــا، ففــي دراسته لعلاقة البروتستنتية بنشأة الرأسمالية، نجده يؤكد أن النظام الرأسمالي حينما يرتبط بالروح الرأسمالية نكون بإزاء موقف رأسمالي متكامل. حيث تشكل الروح عاملاً سببياً أساسياً في تأسيس النظام الرأسمالي الحقيقــي، ومــن ثم فالروح تجسد نفسها فيه. وهي ليست انعكاساً لعناصره الماديــة(٢٧). وتتمــيز علاقة فيبر بالموضوعية بذات الملامح تقريباً، فهو قد وافقها في بعض قضاياها ورفض فيها ما يتنافي مع موقفه النظري. في إطار

ذلــك نجده يرفض تصور كونت لترتيب العلوم. بحيث أدي هذا الاعتقاد إلي إنكار كونت لمكانة علم النفس كعلم مستقل، حيث اعتبره فرعا من البيلوجيا، وذلك لأن كونت قد اعتقد أنه من الممكن أن يوجد علم واحد فقط للمجتمع في حيــن أن العلــوم الطبيعــية كثيرة. بالنظر إلي ذلك يذهب فيبر إلي أنه من الممكن أن تكون هناك، علوم كثيرة ما دام هناك مداخل كثيرة لمشكلة البحث، ومــن ثــم فليس لنا الحق في الإدعاء بأننا قد استنفذنا المداخل الممكنة نحو الحقــيقة مشــكلة البحــث. ولذات السبب نجده ينظر بنوع من السخف إلي محــاولات بعض المفكرين أعطاء العلوم الإنسانية أساساً مشتركاً، بإرجاعها جمــيعها مثلاً إلي علم النفس إذ يقول أنه ما دام لكل علم قضاياه الخاصة به، فأنــه يكــون مستقلاً، وليس ثمة علم يمكن أن يلعب دور النموذج لعلم آخر. ومن ثم فمحاولة أن نجعل من علم النفس أساساً لعلم الاجتماع علي أساس أن الأخير يواجه الظواهر النفسية في بحثه ليس سوي نوع من الرياضة العقلية. ثــم يتســاءل :إلــيس لعلــم الاجتماع علاقة بالظواهر السياسة والاقتصادية والطبــيعة الجغرافــية؟ فلمــاذا لا نجعله يستند إلي علم السياسة والاقتصاد والطب والجغرافيا ؟ فمكانه علم الإجتماع في رأي فيبر تعتمد علي مجموعة القضــايا المحددة التي يحاول بحثها(٢٨) . حدث هذا الاختلاف برغم اتفاقه مع الوضــعية مــن حيــث اعتبارها العلوم الاجتماعية في سلة واحدة مع العلوم الطبيعــية(٢٩). وأن أكد علي ضرورة تباين المنهج لتباين زاوية الاقتراب من المشــكلة بالنسبة لكل عام علي حدة. بالإضافة إلي ذلك نجد أن فيبر يختلف مــع باريــتو أحد مفكري الاتجاه الوضعي فيما يتعلق بطبيعة القوي المسيرة للتاريخ، إذا يعتقد أن حركة المجتمع تتأثر بمجموعة التناقضات الأساسية التي قــد تــتخلق في إطاره، كالتناقض بين واقع الإنسان وما يستحقه، بين أنانية الفــرد والحاجــة إلــي التضحية من أجل الجماعة. ومن ثم فقد أنصب جهد باريــتو علــي تأســيس تصــنيف صادق ودائم لمختلف هذه الرواسب وهو

التصنيف الذي قارب أن يشكل نظرية عن الطبيعة البشرية وصل إليها باريتو عن طريق التسليم بالتنوع اللانهائي للظواهر التاريخية. في مواجهة ذلك نجد أن فيبر يؤكد أنه برغم أن فئات الرواسب هذه قد تتصل بالميول الدائمة للطبيعة البشرية إلا أن التأكيد عليها يقود عالم الاجتماع إلي إغفال أو تجاهل ما هو أكثر أهمية في مسار التاريخ. ويوافق فيبر علي أن كلا من الأساطير وبالمثل الفلسفة غير المنطقية، من طبيعتها أنها غالبا تتحدي قواعد المنطق وحكمة التجربة. ولذلك فعلي المؤرخ دائما أن يحاول إدراك المعاني التي خلعها البشر علي وجودهم من خلالها. ما هو أسلوب مواجهتهم لمشكلة الشر أو ما هي الهدنة التي أسسوها بين الأنانية والتضحية بالذات. ذلك أن أنساق المعاني والقيم هذه ذات طبيعة تاريخية. وهي متنوعة وهامة بسبب خصوصيتها، وبعبارة أخري بينما يؤكد باريتو علي ما هو دائم نجد أن فيبر يحاول أن يفهم الأنساق الأجتماعية والعقلية التي تتميز ملامحها بالتفرد. فقد كان كل ما يهمه هو أن يؤكد علي الدور المحدد للدين في مجتمع معين، وأن يحدد بناء القيم المتبني بواسطة مجتمع أو عصر معين(٣٠).

أما الخلاف الثاني مع باريتو فأنه يتعلق بأنه بينما يصنف باريتو كل ما لا يتفق مع العلم التجريبي في إطار ما هو غير منطقي نجد أن فيبر يوضح ان هناك أساليب فعالة لتنظيم الفكر والوجود، ليست علمية غير أنها ذات معني (٣١). خلاصة القول أنه نتيجة للرفض والموافقة لعناصر كل من الموضوعية والمثالية تأسس موقف فيبري متميز فيما يتعلق بالقضايا موضع الحوار. وتعتبر قضية إدراك معني الواقعة أو البحث عن التعميم الناشئ عن الاطراد أول هذه القضايا. فهو يوافق مع المثالية أن المعاني والقيم يجب أو ينبغي أن تكون مادة البحث الأساسية في علم الاجتماع. بينما هو في ذات الوقت يري مع الوضعية أن العلم علم، أياً كانت طبيعة الظواهر موضع الاهتمام عقلية كانت أم اجتماعية أو فيزيقية. ومن ثم فهو يرفض الموقف

المثالـــي لأنـــه لا يعـــتقد أن عزل المعاني والأحداث الاجتماعية تضع علم الاجـــتماع فـــي فـــئة مختلفة عن فئة العلوم التي تعمل علي تأسيس القوانين السببية. وهو يرفض عملية الفصل بين التاريخ وعلم الاجتماع، بحيث يصبح علـــي الأخـــير أن يصبح علما له طابعه الصوري الخالص. ومن هنا نجده يوافـــق علـــي الموقف التقليدي لعلم الاجتماع كنظام عقلي له طابعه العلمي، يتـــناول مادتـــه في التاريخ. وهو يعتقد أن المنهج الناشيء لصياغة النماذج يعتبر من أول الوسائل لزيادة التحديد المنهجي في علم الاجتماع[٣٢]. ويعتبر التألـــيف بيـــن التفريد والتعميم المنهجي نتاجاً لالتقاء الوضعية والمثالية علي الأرض الفيـــبرية. إذ نجـــده يؤكد أن كلا المنهجين ( التفريد ، والتعميم ) لا يفضـــل اي مـــنهما الآخـــر . ومن ثم نجده يذهب إلي أن المشكلة الأساسية لنظرية المعرفة في نظره تتمثل في طبيعة العلاقة بين القانون والتاريخ، بين المفهوم والواقع. وأيا كانت طبيعة المنهج المستخدم، فأن هذا المنهج عادة ما ينتقي من التنوع الهائل للحقيقة الأمبيريقية ما يلائم اهتمامه. بالنظر إلي ذلك نجد أن المنهج التعليمي Generalized Method يلغي عن الواقع كل مظاهرة الهامشـــية أو الفـــريدة عـــن طريق إرجاع الخلافات الكيفية إلي كميات قابلة للقياس المحدد. بحيث يصلح ذلك أساسا لتأسيس مسلمات عامة ومنطقية. في مقـــابل ذلـــك نجد أن منهج التفريد Individualized Method يهمل العناصر الأساســـية المكونـــة Generic للظاهـــرة، والتـــي تشترك فيها مع الظواهر الأخري، مركزا اهتمامه الكامل علي الملامح الخاصة بها والمميزة لها. بذلك نجـــد أن كـــلا المنهجين ينفصل بقدر ما عن الحقيقة بهدف توفير احتياجات الصـــياغة التصورية الخاصة به، والتي بدونها تستحيل المعرفة العلمية عن طـــريقة – ثم يؤكد فيبر أن كليهما علي هذا النحو له صدقه، وملامته ويكمل كـــل مـــنهما الآخـــر[٣٣].ويكشف تحليل المشروع النظري لماكس فيبر عن تأليفات نظـــرية كثـــيرة علي هذا النحو بين الفرضيات المثالية والوضعية

المتناقصة، مما دفع أنصار كل اتجاه إلي الإدعاء بانتماء الإسهامات النظرية لمـــاكس فيـــبر إلي معسكرهم. فمثلاً برغم انتقاد الوضعية له بسبب محاولته الاعـــتماد علي بعض المفاهيم الميتافيزيقية التي لا يمكن الموافقة عليها، فأن اســـتخدامه لـــذات اللغـــة الوضـــعية كالحديث عن التفسيرات الكافية سببياً، والعلاقـــات بين الظواهر الأجتماعية أدت إلي التسليم به من قبل بعض رواد الوضـــعية علي أنه أحد عمدها برغم اهتمامه الظاهري بالتاريخ والبحث عن المعنـــي في المفرد التاريخي. البرهنة علي ذلك ما يؤكده كل من بول لازار ســـفليد Lazersfeld وأوبرشـــال Oberschall مـــن أن فيبر قد سلم بالطبيعة الاحتمالية للمؤشرات وعبر عن ذلك من خلال مفاهيم سوسيولوجية حينما أكد بوضوح أنه بالنظر إلي هذه الاعتبارات الاحتمالية فأن إدراك معني العلاقات الاجتماعـــية المتـــبادلة يصبح ممكناً، وأن ذلك قد يتوقف حينماً لا تكون ثمة احتمالـــية في وقوع سلوك اجتماعي موجه بمعني محدد(٣٤). بل أنهم يؤكدون أيضـــاً اتفـــاق فيـــبر مع دوركيم في تحديد ما هو اجتماعي. فبينما نجده يبدأ بوجهـــة النظر الذاتية للإنسان المشارك، إذا به يستبدله بأخر يحدده من خلال مـــا هـــو عام ومنتشر في مجتمع معين، بينما هو في ذات الوقت له وجوده المستقل عن تجلياته الفردية(٣٥). في مواجهة ذلك نجد ذات الادعاء لدي رواد المثالـــية، إذا يعتـــبرونه من معسكرهم ويستشهدون علي ذلك بتركيزه علي أهمـــية معني الظواهر الاجتماعية بالنسبة لذات الإنسان المشارك، مما يجعل علـــم الاجتماع ذاته يرتبط بفينومينولوجيا حياة الجماعة اليومية. حيث يبرز ذلـــك أهمـــية علـــم الاجتماع الفينومينولوجي وعلم اجتماع المعرفة. غير أن تأكـــيدهم علـــي الفينومينولوجـــيا المستندة إلي المعني الذاتي والمنفصل عن إجـــراءات الصدق العلمي تجعل هذا التفكير يفتقد أكثر العناصر أساسية من وجهة نظر ماكس فيبر. فهم قد فشلوا في إدراك أن فيبر لم يهتم فقط بالمعني الذاتي للإنسان فيما يتعلق بالموقف، ولكنه اهتم بمعني الموقف بالنسبة لإنسان

مؤسس افتراضاً أيضا. هذا بالإضافة إلي أنهم قد فشلوا أيضاً في إدراك أن فيبر لم يهتم بتأثير المعني وحده علي السلوك الإنساني، ولكنه اهتم بتأثير العلاقات الاجتماعية ذات المعني علي هذا السلوك أيضاً(٣٦).

**ثالثاً : فيبر وماركس، والبدء بمنطلقات جديدة.**

ليست صحيحة تلك القضية التي تحاول التنظير الاجتماعي لماكس فيبر، بأنه قد تأسس بكامله ( من خلال المناقشة العميقة والمستمرة التي قادها فيبر مع شبح كارل ماركس(٣٧). غير أن الحقيقة أن فيبر قد تقابل مع ماركس علي نفس الساحات التي تعرض لها الأخير، وليس لمواجهة الفرضيات الماركسية، ولكن لأن الفرضيات أو القضايا التي تعرض لها ماركس ،كانت قضايا موضع حوار واهتمام من قبل السياق الاجتماعي المحيط أو نسق التفكير العلمي حينئذ. وجهة نظر هذه الدراسة تؤكد أن قضايا الحوار بين ماركسي وماكس فيبر كانت مفروضة من الخارج، أي من السياق المحيط، أو نسق التفكير العلمي، الذي حكم علي كلا المفكرين أن يتعرض لذات الظواهر، ومن ثم فتعرض كل منهما كان اقتراباً علمياً من ذات القضايا، وربما من خلال مداخل متباينة ،وليس التعرض لذات الظواهر كموقف شخصي لأي منهما ضد الآخر.ومن الثابت أن طبيعة الرأسمالية الحديثة وأصلها كانت الواقعة الأساسية التي جذبت انتباه كل منهما، وبالنسبة لماكس فيبر نجد أن جهده قد انصب بشكل أساسي علي هذه القضية، بحيث تحدد أساساً علي فهم الطبيعة الخاصة للحضارة الغربية والتناقضات الواضحة التي لها مع الحضارات الشرقية. وفي هذا الصدد نجد أن فيبر لم يرفض كارل ماركس كما قد يدعي البعض، حيث نجده قد وافق علي المبادىء المنهجية الأكثر عمقاً لكارل ماركس. حقيقة أن فيبر قد رفض بعض القضايا الماركسية، إلا أن هذا الرفض أنصب أساساً علي توضيح بعض القضايا كعدم كفاءة بعض النتائج لماركس، بالإضافة إلي رفض فيبر لمسألة التوفق

الأخلاقـــي والإنســـاني الـــذي يدعـــيه مـــاركس للاشـــتراكية إذا قورنـــت بالرأسمالية[٣٨].ويؤكد تالكوت بارسونز أن ثمة صلة جوهرية بين ماكس فيبر وكارل حيث شكل الأخير نقطة البداية لمختلف التناولات العلمية لماكس فيبر. ذلك أنه من الثابت علمياً أن ماكس فيبر قد تأثر بالمدرسة التاريخية الألمانية، حيث كان لكتابات ومناقشات ماركس المتعلقة بالرأسمالية والاشتراكية تأثيرها الفعال في فترة تشكل أفكار ماكس فيبر[٣٩]. مما دفعه إلي تركيز اهتمامه في المـــرحلة التالية علي ظواهر النظام الاقتصادي الحديث باعتبارها تشكل نسقاً اجتماعـــياً، حيـــث نجد أن ماكس فيبر قد سبق كلا من زومبارت Sombart وكـــارل ماركس في التأكيد علي نفوذ هذا النسق في التاريخ، حيث لم يوجد مـــثله في أي زمان أو مكان[٤٠]. في إطار ذلك نجد أن ماكس فيبر يتفق مع مـــاركس فـــي كثير من المقولات الوضعية المتعلقة بالنظام الرأسمالي.يؤكد ذلك قول ريمون آرون أن التفكير الفيبري ليس قلباً للمادية التاريخية، بل أنه ليس هناك تصور أكثر زيفاً من أن نتخيل أن فيبر أسس مشروعاً تناقض به تماماً مع المشروع الماركسي، يفسر في إطاره الاقتصاد بالنظر إلي الدين في مقـــابل تفســـير ماركس الدين بالنظر إلي الاقتصاد [٤١]،غير أن ذلك لا ينفي وجـــود خلاف بينهما. ولكن ما نود تأكيده في هذا الصدد أن فيبر لم يؤسس نموذجـــه الـــنظري لمواجهة ماركسي وإنما هو قد نظر إلي ذات الواقع من مـــنطق متبايـــن يتـــناقض مـــع المـــنطق الماركســـي،وهو منهج له تبريره ومشـــروعيته العلمـــية.ويكشف تحليل المشروعات النظرية لكل من ماركس ومـــاكس فيبر عن وجود اتفاقيات كبيرة بينهما. فالنموذج المثالي. الذي يمثل جوهـــر الإبداع النظري لماكس فيبر نجد أن ماركس قد قال به أيضاً. حيث تعتـــبر القوانيـــن والتأسيســـات الـــنظرية التي صاغها ماركس نماذج مفيدة للغايـــــة[٤٢]. يؤكـــد ذلـــك ما يذهب إليه ماكس فيبر نفسه الذي قال أنه من

الطبيعـــي أن نعتـــبر كل القوانين والصياغات التصورية لماركس - ما دامت ذات طابع نظري – نماذج مثالية بصورة محددة.

حيـــث تتبدي قدرة وتفرد هذه النماذج المثالية، بل وكفاءتها التوجيهية حيـــنما تســـتخدم لدراســـة الواقع بالنسبة لأي باحث قد يستخدم الفروض أو المفاهيم الماركسية[٤٣]. ويمثل شمول النسق الرأسمالي وتفرده التاريخي نطاق الاتفاق الثاني بين كل من ماكس فيبر وكارل ماركس. إذ يؤكد فيبر أنه برغم وجـــود ملامـــح سوق المدينة أو الشركات أو النقابات، وكل أنواع التباينات المشـــروعة بيـــن القرية والمدينة في كل مكان، فأن مفهوم المواطن لم يوجد خـــارج القـــارة الأوربـــية، بـــل أن مفهوم البوجرازية لم يوجد خارج أوربا الحديـــثة، ومن ثم لا يمكن وجود البروليتاريا كطبقة خارج أوربا ما دام ليس هـــناك تنظيم عقلاني للعمل الحر في إطار نظام مستقر. ومن ثم فالصراعات الطبقـــية بيـــن الطبقات الدائنة والمدينة، بين الملاك ومن لا أرض لهم، بين العبـــيد أو المســـتأجرين، والإقطـــاع قد وجدت في كل مكان ولكن بأشكال مختلفة. هذا في حين أن الصراع الحديث بين أصحاب الصناعات الكبيرة من ناحـــية وبيـــن العمـــال ذوي الأجر الحر Free Wage قد اختفت تماماً خارج أوربـــا[٤٤]. وتشـــكل العلاقات الأجتماعية كسياق للإنسان،إطاراً آخر للاتفاق بينهما، فبينما نجد أن ماركس قد رفض تشيؤ العلاقات الاجتماعية لأنها تشكل وجـــودا خارجـــياً بالنســـبة للإنسان الفرد تتولي قهرة، فأن فيبر كان يدرك العلاقات الاجتماعية علي أنها توجيه سلوك الإنسان نحو الآخر، ومن ثم فهي تشـــكل مسارات للسلوك يمكن إدراكها ذاتياً، ومن ثم فهي أبعد ما تكون عن التشيق. حقيقة أن الآخر، وهو الطرف المقابل للعلاقة قد يبدو خارجياً بالنسبة للأنا، ولكنه يبقي كائناً لا يسمو علي ما هو فرد. ومن ثم نجد أن ماكس فيبر بالإضـــافة إلـــي ذلك يتفق في رفض التشيؤ الماركسي حينما يؤكد دائماً أن

نقطـــة الـــبدء فـــي مشروعه النظري ليست شيئاً ما خارجاً External علي الإنسان ولكنه النشاط الإنساني ذاته (٤٥).

ويعتبر نظام الطائفة الهندية ظاهرة عينية كانت موضع اتفاق بينهما. ففـــيما يـــتعلق بهـــذا الـــنظام يؤكـــد فيـــبر أنه قد كانت له آثاره علي النمو الاقتصادي، ليس لأن هذا النظام، كما يتوقع المرء منذ البداية، يفرض عوائق وتحـــريمات علـــي التفاعل الاجتماعي، ولكن لأن هذا النظام أصبح بدرجة واضـــحة تقليدياً ولا عقلانياً من حيث آثاره. وتذهب كثير من الدراسات إلي أنـــه تأثر في تحليله لهذا النظام بدراسات كارل ماركس في هذا الصدد، الذي نظر إلي المكانة الخاصة للحرفي في القرية الهندية – من حيث اعتماده علي الأجر العيني الثابت بدلاً من اعتماده علي الإنتاج من أجل السوق – علي أنها المســـبب الرئيســـي لاستقرار الشعوب الآسيوية. فقد كان ماركس، علي ما يذهـــب فيبر، علي ما يذهب فيبر، صادقاً في هذا الصدد(٤٦). ومما لاشك فيه أن نقاط الاختلاف كان لها وجودها البارز إلي جانب نقاط الاتفاق. بداية نجده يخـــتلف مـــع كارل ماركسي في اعتباره الصراع وليس التعاون هو العملية الأساسية التي يستند عليها التفاعل الاجتماعي في المجتمع(٤٧). بالإضافة إلي ذلـــك نجـــد كثـــيراً من الاختلافات المنهجية، يتضح ذلك من أن فيبر يطرح قضية الوضع الوجودي للإنسان في الكون. ثم يحاول من خلال ذلك إكتشاف القواعد التي تنال اعتباراً من الإنسان الذي ينجز سلوكاً محدداً، بالإضافة إلي تحديـــد القوانين التي تحكم الحياة السياسية بشكل عام. ومن ثم نجده يتساءل فيما يتعلق بطبيعة المعني الذي يخلعه الإنسان علي وجوده في هذا العالم، ما هي العلاقة بين أفكاره الدينية وأسلوب الحياة التي يعيشها، ثم الاتجاهات التي تبـــناها نحو الاقتصاد والعلاقة التي أسسها مع السلطة. في إطار ذلك نجد أن علـــم الاجـــتماع لـــدي فيبر ألهم بفلسفة لها تصور وجودي يستند إلي رفض قضـــيتين : الأولي أنه ليس هناك علم يستطيع أن يوضح لنا كيف ينبغي أن

نعـــيش ولا كيف ننظم مجتمعنا. بالإضافة إلي ذلك فليس هناك علم يمكن أن يوضـــح للإنسانية ما هي طبيعة مستقبلها، الرفض الأول موجه نحو دوركيم أمـــا الثانــــي فموجه نحو كارل ماركس. بالنظر إلي ذلك نجد أن ماكس فيبر يشير إلي زيف الفلسفة الماركسية لأنها غير متلائمة مع طبيعة العلم ولا مع طبيعة الوجود الإنساني. ذلك لأن كل علم تاريخي أو سيوسيولوجي ما هو إلا نظـــرة جزئـــية، ومن ثم فهو عاجز عن إعلامنا مقدماً بطبيعة المستقبل، لأن المســـتقبل لا يتحدد قبلاً. وحتي لو كانت بعض أحداث المستقبل محددة قبلاً، فـــأن الإنســـان في طبيعته الأساسية البسيطة، سوف يكون لديه الحرية التي يســـتطيع أن يـــرفض بها هذه الحتمية الجزئية، أو أن يتكيف معها بأي من الأســـاليب العديدة التي قد تتراءي له [٤٨].وهنا نلاحظ خلافاً جوهرياً أساسياً لمـــاكس فيبر مع كارل ماركس. أولاً أنه رفض أي تصور للمستقبل ومن ثم فهـــو يرفض حتمياً أي تصور للمجتمع الشيوعي، وهو الهدف الأساسي من المشـــروع الماركســـي. وثياباً أنه رفض في الوضعية طابعها الجماعي من حيـــث إغفالها لفاعلية الفرد في تشكيل المجتمع. فأنه يرفض الحتمية النسقية لـــدي كـــارل مـــاركس، ومن ثم نجد أن فيبر يوفر للفرد حريته الكاملة في مواجهـــة الحتمـــية إلي يمتلكها النسق. فله إراديته في الاختبار بين أن يكون ســـلوكه هادفـــاً إلي تغييرها أو أن يتجه إلي التكيف معها. ما يرفضه ماكس فيـــبر أيضـــاً التأكـــيد علـــي العوامل الاقتصادية أو الجوانب المادية للبناء الاجتماعي، ومحوريتها في قيادة التفاعل والتطور الاجتماعي، هذا بالإضافة إلي رفض الحتمية الأحادية Unilateral Determination للمجتمع من قبل اي من عناصره، سواء كان هذا العنصر اقتصادياً أو سياسياً أودينا، إذ يؤكد فيبر أن العلاقـــة الســـببية في علم الاجتماع ذات طابع جزئي واحتمالي، ومن ثم ينتقي أي طابع إلزامي حتمي[٤٩]. وفي أعقاب إلغائه الطابع الحتمي لأي من العوامل نجده يتقدم لعرض رؤيته الذاتية. فيؤكد أنه فيما يتعلق بمذهب المادية

التاريخـــية الأكـــثر سذاجة، الذي يذكر أن الأفكار تتأسس كانعكاس للمواقف الاقتصــــادية، فأن تأكيده لا ينم عن موقف علمي موضوعي. حيث أن روح الرأسمالية كانت موجودة قبل تخلق النظام الرأسمالي(٥٠). في إطار ذلك نجده يـــرفض بشـــدة أية فكرة تذهب إلي أن هذه الأنساق الرشيدة للأفكار الدينية يمكن فهمها بالنظر إلي شروط مادية معينة. بينما هي في الحقيقة نتاج للروح المنبـــثقة الموضحة لمعني العالم من زاويا مختلفة(٥١). ثم يتجه بعد ذلك إلي تفســـير نشـــأة ظاهـــرة النبوة فيؤكد أنه يمكن – إلي حد كبير – نسبتها إلي المواقـــف الإجتماعـــية، حيث تكون القيم التقليدية مهتزة والصراعات متفشية بحيـــث قـــد يشكل ذلك دافعاً لاتخاذ موقف. ومن ثم فهو يري أن الأنبياء لهم صـــلة كبيرة بالصراعات الاجتماعية(٥٢). ذلك يعني رفضه للحتمية الأحادية التـــي قـــد تعزو التفاعل الاجتماعي لأن من عناصره المكونة. حقيقة أنه من الناحـــية الظاهـــرية يقدم بديلاً متمثلاً في أولوية القيم الدينية، إلا أن حقيقة الأمـــر تؤكد أنه يرفض هذا الإحلال الإطلاقي، أو الحتمية لأي من العوامل، فالعلاقـــة لديـــه متـــنوعة، متغيرة احتمالية وجزئية. تبقي بعد ذلك مجموعة الخلافـــات العينية الأقل خطورة من الخلافات المنهجية، ويعتبر تقسيم العمل الاجتماعي أول قضية خلافية في هذا الصدد.

إذ نجـــد أن فيـــبر يتخذ موقفاً مضاداً للماركسية، حيث نجده يؤكد أن البشر مؤهلون بدرجات متباينة من وجهة النظر الفيزيقية والأخلاقية والعقلية. ذلك أن هـــناك نوعاً من اليانصيب Lottery في بداية الوجود الإنساني. له طابعة الجينـــي أساساً، حيث أن الجينات التي يحصل عليها أي منها تنتج عن ترابط مجموعة كبيرة من الاحتمالات، إذ يمثل كل فرد منا ترابطاً لعشرات وآلاف مـــن الجيـــنات، وما دام عدم المساواة موجوداً منذ البداية، فأنه قد قام بشأنها اتجاهـــان. أحدهمـــا يمـــيل لإلغاء التباين الطبيعي من خلال جهد اجتماعي، والثانـــي علـــي العكـــس منه يحاول أن يكافئ كل شخص بالنظر إلي قدرته

المتبايــنة. ثـــم نجده يترك القضية كلية دون أن يفصل أمرا أو يطرح موقفا محــدداً، حينما يؤكد أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً بشأن هذه القضية، ومن ثم فكـــل إنســـان له أن يختار ألهه وشيطانه(٥٣). وفي أعقاب تأكيده علي التباين البيلوجـــي نجده يستمر حتي يؤكد علي التباين الاجتماعي أيضاً. حينما يعتبر تقســيم العمل والمهن في المجتمع كنتيجة لتصور إلا هي للأمور كما يذهب توماس الاكويني Thomas Aquinas أو أن تباين البشر إلي طبقات ومهن من خــلال تطور تاريخي أصبح بالنسبة للوثر Luther نتيجة مباشرة لإرادة الله. فالفرد عليه أن يثابر في المكان والحدود التي حددها له الله كواجب ديني(٥٤). وفي أعقاب تأكيد فيبر علي الأساس البيولوجي والثيولوجي للتباين الاجتماعي المتمـــثل في تقسيم العمل الذي يسود النظام الرأسمالي نجده يقدم رؤياً مخالفة تمامـــاً لـــتلك التـــي طـــرحها ماركس فيما يتعلق بالمكونات الأساسية للنظام الرأســـمالي. إذ نجـــده مـــنذ البداية يؤكد أن المكانة أو الوظيفة التي يؤديها الإنســـان في الموقف الرأسمالي تعتبر نوعاً من النداء الباطني Calling. ذلك يعني أن الموقف يتطلب نوعاً من التضحية اللاشخصية لأعمال الوظيفة التي تفرض التزاماتها علي القائم بها. بحيث تعمل العملية الاجتماعية في الموقف نحـــو ملاءمـــة أعمـــال الإنسان بحيث تصبح أي من أنماط سلوكه وعلاقاته بالآخريـــن مضبوطة بدقة بواسطة هدف الكل الذي يعمل الجميع لتحقيقه(٥٥). فالرأســـمالي مـــثلاً لـــم يـــنم رأسماله كنتاج لفائض القيمة – علي ما يذهب مـــاركس– وإنما نشأت الشخصية الرأسمالية في مدرسة الحياة الصعبة .فهي معتدلة ومضحية في ذات الوقت من أجل عملها، وهي ذات طابع برجوزاي آرائها ومبادئها. ثم يوضح ماكس فيبر كيف نشأت الرأسمالية، فيؤكد أنه بدلاً مـــن انـــتقال الفلاحيـــن إلي المدينة لبيع الغزل إلي الموزعين من أجل بيعها للمستهلكين قام هؤلاء الموزعون بتغيير هوية الفلاحين إلي صناع عن طريق تجمـــيعهم بالمديـــنة، وتأسس علاقات لهم بالسوق وبالمستهلكين بحيث تتجه

السلع مباشرة إلي إشباع حاجات الآخرين[٥٦]. ثم يؤكد أن الشخصية الرأسمالية تتميز بالتحرر من التقاليد، والعمل الدؤوب ، والتقشف، والإحساس بـن يعبر عن غريزة البقاء ذاتها[٥٧]. وأثناء تعرض فيبر لأخلاق المسئولية نجده يبرر للإنسان إمكانية أن يتخذ موقفاً ميكيافيليا، حينما يؤكد أن للقائد أن يخدع الجنود في سبيل المصلحة العامة العليا [٥٨]. وقياساً علي ذلك فللرأسمالي أن يفعل ما يريد ما دام يعمل علي تراكم رأس المالي وهو هدف يعتبر عن إرادة الله في أرضه كما تذهب الكالفنية. ثم يصل إلي قمة البرهنة حينما يبرر استغلال الرأسمالي للعامل نظراً لأنه سوف يحصل علي الأجر الذي يشبع حاجاته من خلال ساعات إنتاج قليلة. ومن ثم فالرأسمالي يخفض الأجر حتي يعمل العامل الساعات الكثيرة التي تؤهله للحصول علي المقابل الذي يشبع حاجاته [٥٩]. في إطار ذلك نجد أن لدي ماكس فيبر تصوراً للعامل – الآخر في الموقف– ككائن محدود الحاجات ليست له أية إرادة فيما يتعلق بعملية تراكم رأس المال والعمل الدؤوب، وهو ما تذهب إليه وتؤكده البروتستنتية وهو ما يعني تخلفاً لنوع من التناقص في مشروعه النظر. أما فيما يتعلق بالعامل البروليتاري كأخر في الموقف فأنه يؤدي دوره أيضاً بالنظر إلي إلزام القيم البروتستنتية له.

فالعمل لم يعد ينظر إليه علي أنه نوع من الدنس أو الشر كما هو الحال في بعض الحضارات القديمة. ولكنه في إطار النظام الرأسمالي أصبح يؤدي علي أنه التزام أخلاقي إيجابي، لإبراز الأهداف الأخلاقية العليا للإنسان. ومن ثم فالاتجاه الرأسمالي نحو العمل يمثل تلك الروح التي يطلق عليها فبلن Veblent روح أو غريزة العمل. فالإنسان الذي لا ينتج ومع ذلك يتمتع بالصحة والعافية، وهو شخص يتنكر لالتزاماته الأخلاقية[٦٠]. وهنا أيضاً نجد أن فيبر يبرز التبرير الثيولوجي لاستقلال قوة العمل تحت غطاء أن لدي الأخير التزاماً أخلاقياً للعمل. وحول المسألة اليهودية – وهي المسألة التي

أهتم بها ماركس – نجد أن ثمة خلافاً آخر. فبينما يعزو ماركس عزلة اليهود إلـــي عوامـــل وظـــروف تكمن في السياق الاجتماعي. وخاصة تلك المتعلقة بالأوضاع الاقتصادية والمادية، نجد أن فيبر وفقاً لمنظوره النظري يؤكد أن عزلتهم وعدم اختلاطهم من أطاعتهم لقيم ديانتهم (٦١).

**رابعاً: فيبر ودوركيم ، الفرد في مقابل المجتمع.**

المؤكد أن أفكار دوركيم احتلت من الناحية التاريخية مكانة بارزة في تطـــور الـــنظرية الاجتماعية العامة. بحيث يتفق كثير من المفكرين علي أن أفكـــاره قد لعبت دوراً هاماً في تأسيس الميلاد الحقيقي لنظرية علم الاجتماع كـــنظرية علمية، وتحديد ملامحها التي تعيش بها حتي الآن، غير أن تحليل البناء النظري لدوركيم يكشف عن عناصر وضعية ومثالية متضمنة به. ومن المنطقـــي أن تكون أفكار دوركيم موضعاً لاهتمام فيبر، أولاً لمكانه دوركيم فـــي إطار نظرية علم الاجتماع، وثانياً بالنظر إلي طبيعة الاهتمام بمجموعة من القضايا التي شكلت إطاراً اتفاقياً أو خلافياً من قبل كل منهما(٦٢). ونحن نواجه منذ البداية باختلاف طبيعة التفكير عند كل منهما. إذ نجد أن فيبر كان بالأساس امتداد للمثالية، وبشكل جوهري نجد أن دوركيم كان امتداد للوضعية الكونتـــية. بالإضافة إلي ذلك نجد أن دوركيم كان يمثل نموذج المنظر الذي تميز مشروعه النظري بوضوحه القاطع وشموله وبساطة خطوطه الأساسية ومـــن ثـــم فـــإذا قلنا أن دوركيم كان منظراً منقطع النظير فأن ذلك تم علي حســـاب الـــبعد الأمبيريقي لدراساته. بناظر ذلك أننا نجد أن ماكس فيبر من نموذج مختلف. فبرغم اهتماماته النظرية، نجد أن لديه رغبة شاملة في جمع الكـــم الهائل من الحقائق التفصيلية والمتراكمة. وفي نقاط محددة من معالجته نجـــده يصـــر علي ضرورة وضوح خطوط بنائه النظري بدرجة قد تتجاوز الواقعية المفصلة(٦٣). يضاف إلي ذلك أنه برغم اختلاف التوجه الأساسي لكل مـــنهما، حيث اهتم فيبر في قضايا الدينامية الاجتماعية أو التطور الاجتماعي

Socisl Dynamics التـــي لـــم يهتم بها دوركيم كثيراً. وبينما اهتم فيبر أساساً بـــالفعل والنماذج المثالية للفعل نجد أن دوركيم اهتم أساساً بالمعرفة المتعلقة بـــالواقع. أما فيما يتعلق بالخطوط العامة لأطرهما التصورية فنجد أنها غالباً مـــا كانت متطابقة، ونذكر مثالين علي ذلك. الأول يتعلق بالفصل بين الدوافع الأخلاقـــية، وغـــير الأخلاقـــية للفعل أو السلوك، وهو فصل يتم بالنظر إلي العنصـــر المعـــياري للفعل أو السلوك، أما الثاني فيتعلق بالفصل بين نوعية المعايير الأخلاقية ( المشروعية لدي فيبر أو السلطة الأخلاقية عند دروكيم ) مـــن ناحية وبين العنصر الأشمل الذي تعتبر هذه المعايير تجلياً له( الكارزما عـــند فيـــبر، ومـــا هـــو مقدس عند دوركيم) [٦٤]. ولتوضيح أبعاد الاتفاق والاختلاف بينهما سوف نبدأ بما هو منهجي أولاً . إذ نجد أن فيبر يختلف مع دروكيم حول قدرة العلم علي مساعدة البشر في تحديد المجتمعات التي ينبغي أن يعيشـــوا فيها، المقولة الدوركيمية المتعلقة بتحقيق الموضوعية والتي تؤكد ضـــرورة انفصال الباحث عن الحقيقة التي يدرسها، مؤكداً أن ذلك قد يعجز الباحـــث عن فهمها[٦٥]. ويضرب مثالاً علي ذلك مؤكداً أن دراسة الدين علي أنه نسيج من الغيبيات قد يتضمن خطر سقوط الباحث وفشله في تأسيس فهم عميق للحياة الدينية للبشر. في إطار ذلك يؤكد فيبر أن علي الباحث أن يكون لديـــه إحســـاس بأهمية ما يمارسه البشر من أجل أن يدركه بشكل جوهري، غـــير أن علـــيه بعد ذلك أن يفصل نفسه عن اهتمامه الشخصي إذا أراد أن يؤســـس صدقاً لمسألة ذات طابع عاطفي[٦٦]. ويشكل النموذج المثالي قضية خلافـــية أخري علي المستوي المنهجي، فبينما نجد أن دوركيم يهتم بتأسيس الـــنموذج المتوســـط Average Type وهـــو الذي يختلف كثيراً عن المتوسط الإحصـــائي كما صاغه كتيليه، إذ نجده يؤسس النموذج المتوسط بالنظر إلي كـــل الخصـــائص التي تسود لدي المفردات الواقعية ومن ثم يحتوي النموذج المتوسط علي صفاتها الواقعية وأن كان من الممكن أن تحتوي هذه المفردات

علـــي بعض صفاته فقط، علي خلاف ذلك نجد أن ماكس فيبر يري النموذج المثالي ليس وصفاً للواقع ولكنه يهدف إلي توفير وسائل واضحة لوصف هذا الوقـــائع والتعبير عنه(٦٧). فالي جانب أنه ليس نظرياً، فانه ليس وصفاً أميناً للواقـــع، وهـــو أيضـــاً ليس نموذجاً لوصف ما ينبغي أن يكون، وإنما يعتبر وسيلة تيسر إبراز ما يعتبره الباحث خصائص أساسية في الظاهرة موضوع الدراسة. وتشكل مسألة الحتمية نطاقاً خلافياً آخر بينهما. بالنظر إلي ذلك نجد أن فيـــبر يـــرفض نوعين من الحتمية ارتضاهما دوركيم. الأول ما يمكن أن نســـميه بالحتمـــية المجتمعـــية، حيث تتحدد خصائص مجتمع ما بخصائص المجـــتمع السابق عليه (٦٨). أي أنه يرفض صياغة الحاضر بواسطة الماضي وهـــي فرضـــية وضـــعية أكد عليها كل من بورك وكونت ودوركيم وتعتبر الحتمية الاجتماعية هي الحتمية الثانية التي يرفضها فيبر عند دوركيم. حيث يـــرفض نشـــأة وتطـــور الـــتفاعل الاجتماعـــي بالنظر إلي بعض العناصر الاجتماعـــية، التـــي تتمـــثل أساساً في الثقافة والقيم والتجليات الجمعية عند دوركيم وهو ما يعني أن المجتمع من خلال الحتمية الاجتماعي يتولي صياغة أفـــراده علي غراره. في مواجهة ذلك نجده يؤكد علي التصور الإرادي الذي يخلـــق في إطاره البشر مجتمعهم، ومن ثم نجده ينكر وحول نظام شامل للقيم لـــه وطأتـــه الملـــزمة علـــي الأفـــراد(٦٩) .علي غرار ما يذهب دوركيم . وتشـــكل طبيعة النظرة إلي الحقيقة الاجتماعية موضع خلاف آخر بين فيبر ودوركـــيم. وإذا يـــرفض الأول تشيء الحقيقة الذي افترضه دوركيم، الذي يـــراها خارجة عن الوجود الفردي، ومن ثم فهي لا تفسر بالنظر إلي الدوافع والأهـــداف الفردية، لأنها ذات طابع جماعي يتجاوز الفرد ذاته، بذلك يؤسس دوركـــيم ما يسمي بالمنهجية الجماعية Methodlogical Collectivism . في مواجهة ذلك نجد أن فيبر يؤسس ما يسمي بالمنهجية الفردية Metodological Individualism التـــي تؤكـــد أن التفسيرات تصبح كافية إذا هي قامت علي

مســتوي المعني، غير أن ذلك لا يعني إغفال العلاقات السببية بين العناصر المكونــة للسلوك أو الفعل، والتي تجد منطلقاتها الأساسية في دافعية الأفراد Actors Motivation [٧٠]. ذلك يعني أنه بينما كانت نقطة إنطلاق السلوك عند دوركيم جمعية، إذا هي فردية عند ماكس فيبر. وبينما هي متشيئة ندركها من خلال مؤشراتها واظهارتها الخارجية عند إميل دوركيم إذا بنا لكي ندركها - مــن وجهة نظر ماكس فيبر - فأن علينا أن نبحث عن المعني المتضمن في إطارهــا. يبقي بعد ذلك خلاف يتعلق بقضية التغير الاجتماعي. إذ نجد لدي فيــبر اهــتماماً بالتغير كعنصر أساسي من عناصر التفاعل الاجتماعي يفوق مســتوي اهــتمام دوركيم بهذه القضية ويتضح ذلك من نظرة كل منهما لهذه القضــية من خلال علاقتها بالقيم الدينية. فبينما يؤكد دوركيم علي دور القيم والمعايــير في تحريم المساس بالحالة النظامية الراهنة، نجد فيبر يوضح من خــلال نظريته عن النبوة، وعملية الصياغة العقلانية للكارزما الدور الآخر للعنصــر القيمي المتعلق بالقيم كوسيلة إرادية في أحداث التغير الاجتماعي. وفــي الحقــيقة لا يعتــبر ماكس فيبر مناقضاً في هذا الإطار لما يذهب إليه دوركيم، وإنما نجده يوسع الدور الذي فشل دوركيم في تأسيسه للقيم. ويعزي نجــاح فيــبر فــي ذلــك إلــي منظوره المقارن، واهتماماته بقضايا التغير الاجتماعي[٧١].

بــيد أن ذلــك لا يعني أن الموقف الفيبري كان رفضاً للموقف الدوركيمي إذ نلاحــظ بيــنهما اتفاقــيات عديدة، نذكر منها اتفاقهما حول بعض العناصر الأساســية المــتعلقة بالواقع الاجتماعي والتفاعل الذي يتم في إطاره. فهناك اتفــاق بيــنهما علــي مواجهــة الماركسية فيما يتعلق بتأكيدهما علي التباين البيلوجي بين الأفراد بالنظر إلي قدراتهم الأساسية والإمكانات التي لديهم. في هذا الإطار نجد أن دوركيم يؤكد علي أنه ينبغي علي تقسيم العمل الاجتماعي أن يراعــي تبايــن الأفراد من حيث قدراتهم، ومن ثم يوزعهم علي الأعمال

الملائمـــة لهـــم، وهو ما يعني إيمانه بالتفاوت الفطري بين الأفراد المشكلين للمجتمع، وتأسيس أساس بيلوجي للتباين الاجتماعي(٧٢). بالإضافة إلي ذلـــك

نجد أن فيبر يؤكد أيضاً علي لك حينما يذهب إلي أن البشر متباينون من حيث النواحي الأخلاقية والعقلية والفيزيقية، وأن النظام الاجتماعي الملائم هو الـــنظام الذي يدعم هذا التباين الطبيعي(٧٣). بذلك يخلق فيبر تبريراً بيولوجيا وفيزيقـــياً للتباين الاجتماعي، أو فيما يتعلق بأنماط السلوك التي يأتيها البشر فـــي إطار التفاعل الاجتماعي. وتشكل مشكلة النظام الاجتماعي نطاق التقاء بيـــن فيبر ودوركيم. إذ يؤكد فيبر علي ضرورة قيام نظام معياري له طابعة الإيجابي ينبغي أن يتوفر له القبول الشرعي. هذا القبول من جانب الأفراد في المجتمع ينبغي أن يتوفر له عنصران أساسيان، الاتفاق Agreement والفرض Imposition ويعتـــبر العنصـــر الأول معبراً عن مصالح الأشخاص غير أنه ليس كافياً لتأسيس النظام الاجتماعي. غير أنه لكي تتوفر للنظام مشروعيته، فأنـــه ينبغي أن يكون هناك إلزام لتنفيذ متضمنات الاتفاق. ولعل ذلك يتصل إلي حد كبير بتحليل ودوركيم لعلاقات التعاقد، حيث يعتبر عنصر المشروعية (الإلزام ) في الاتفاق جزءاً من تصور دوركيم ( للعنصر اللاتعاقدي في العقد )(٧٤). وبذلـــك يصـــل فيبر لنفس النقطة التي وصل إليها دوركيم حينما يفسر القهـــر Constratint علـــي أنه يمثل سلطة أخلاقية. وفضلاً عن ذلك نجد أن فيبر يقترب من هذه المسألة من ذات الوجهة الدوركيمية حيث يعتقد أن – إذا مـــا تأســـس النظام – الفرد يأتي سلوكه بالنظر إلي نسق القواعد التي تشكل الظـــروف أو الشـــروط الأساسية لهذا السلوك (٧٥). وبإيجار، يكمن الخلاف الأساســـي بيـــن دوركـــيم وفيبر فيما يتعلق بالسلوك الاجتماعي حول نقطة أساســـية. فبيـــنما يري الأخير أن السلوك الفردي يشكل النواة الأساسية التي تلتقي مع سلوك الآخر لتشكل التفاعل والنسق الاجتماعي، ومن خلال التفاعل

تتأسس ظواهر ونظم كثيرة تعمل جميعها علي استمرار تخليق النسق فإذا تخلق النسق فأنه يشكل شروطاً موقفية تتحكم في تفاعله. بيد أن هذا التحكم لا يكون قهرياً يجبر السلوك الفردي علي السير في إطار مسارات معينة. وإنما هو يترك للفرد إمكانية التغيير الإرادي لهذه الشروط متي كان ذلك مطلباً يعبر عن اتفاق جماعي، علي خلاف ذلك نجد دوركيم الذي يؤكد بداية علي تخليق النسق الاجتماعي من خلال التفاعل الذي يكسبه هوية جديدة تختلف عن هوية التفاعلات الفردية التي ساهمت في تشكيله. غير أن الجديد في هذا الصدد أنه بمجرد تخلق النسق فأنه يمارس وطأته وقهرة علي الأفراد. ومن هنا نجد أن دوركيم عجز من تناول قضية التغير، وهي القضية التي كان لفيبر إسهامه العبقري في إطارها.

## خامساً : الواقع الاجتماعي وأحدثه المؤثرة.

نحاول في إطار هذه الفقرة استعراض بعض أحداث السياق الاجتماعي المعاصر لماكس فيبر، ومدي تأثيرها علي تحليلاته النظرية فيما يتعلق بالتفاعل الاجتماعي وطبيعته الأساسية. وتكشف دراسة المشروع النظري لماكس فيبر عن اهتمامه بثلاثة قضايا رئيسية. الأولي تتعلق بالأشكال البنائية للمجتمعات، أما الثانية فتتعلق بالبيروقراطية كعملية وتنظيم أساسي يسود الواقع الاجتماعي لأوربا الحديثة. وتنصب القضية الثالثة أساساً علي بناءات السلطة في عصره. وبنظرة تركيبيه إلي هذه القضايا الثلاث ينكشف لنا أنها تدور في فلك القضية الأساسية المتعلقة بالنظام الاجتماعي والسلوك الفردي في إطاره من حيث إطاراته وحدوده. أما فيما يتعلق بالقضية الأولي فنلاحظ أن معظم أعمال ماكس فيبر التي كُتبها طيلة حياته ما هي إلا انعكاس الانتقال المجتمع الأوربي الغربي، خلال شباب فيبر علي ما ذهب روبرت نسبت، من المرحلة التقليدية إلي مرحلة التحديث في مجالات السياسية والاقتصاد والتعليم، وكافة المجالات الأساسية الأخري للنظام

الاجتماعـــي[٧٦]. حيث حدث هذا الانتقال في تاريخ المجتمع الأوربي بفاعلية عاملين أساسين، العامل الأول سياسي، حيث تأثر فيبر ككل العلماء الآخرين مـــن أمـــثال دوركـــيم، مـــاركس، توكيفل، توكفيل Tocqueville وكروبتكن Kropotkin وبورك Burke بالتغيرات التي عايشها والتي يمكن إرجاعها إلي الـــثورة الفرنسية. حيث كان لهذه الواقعة العظيمة تأثيرها علي عقل وتفكير القرن الثامن عشر. إذ أصبح العقل الأوربي يري في الثورة الفرنسية التأثير المفاجئ والقوي الذي يمكن أن يكون للبشر والأحداث علي البناءات التقليدية فـــي الغـــرب، ومـــن ثم الإصرار علي استبدال هذه البناءات بأخري يحاول الـــثوريون اســـتنتاجها من خلال العقل، وبذلك يكون لها طابعها العقلاني. أو اســـتبدالها بأخـــري لها طابعها الكارزمي، التي يتمثل مصدرها في الحضور الســـاحر للفـــرد القـــائد مثل نابليون[٧٧]. أما العامل الثاني لانهيار البناءات التقلـــيدية فيتمـــثل في الثورة الصناعية التي أدت إلي تقطيع أواصر الروابط التقلـــيدية للمجـــتمعات التي تأثرت بها. ومن ثم أدت إلي انتقالها إلي أوضاع اجتماعـــية جديـــدة. من حيث تقسيم العمل، ونمط الإنتاج السائد بها، وأشكال العلاقـــات الأجتماعية ومن ثم البيروقراطية كعملية أساسية تؤدي محورياً في بناء هذه المجتمعات. وتشكل البيروقراطية العملية التي تركز اهتمام فيبر بها نظـــراً لفاعليـــتهما الواقعية. فقد لاحظ فيبر انتشار البناءات البيروقراطية في مخـــتلف مجـــالات الحياة الاجتماعية. مما جعله قلقاً بشأن حرية الإنسان في مواجهة النظام الاجتماعي الذي يتسم بدرجة عالية من العقلانية. والذي تحتل البيروقراطـــية مكانة محورية في إطاره. إذ نجده يؤكد أنه من المثير للرعب أن نعـــتقد العـــالم ســـوف يصبح يوماً ما ممتلئاً بلا شيء سوي هذه التروس الصغيرة. أو البشر الصغار المعلقين في أعمال صغيرة.والذين يناضلون من أجل وظائف أكبر. مثل هذا الشعور نحو البيروقراطية كفيل بأن يدفع الإنسان إلي الإحساس باليأس. ويبدو أن ذات الأمر يقع في المجال السياسي، إذ يؤكد

أنه نظراً لأن البشر يحتاجون النظام إرادياً. ولا شيء غيره، فأنهم يصبحون جبناء ويصيبهم العصاب لو اهتز هذا النظام للحظة واحدة. ونصبح لا حول لنا ولا قوة، إذا أصيب النظام بالانهيار. إذا حدث ذلك، فأننا نجد أنفسنا محاصرين، وتصبح المسألة الأساسية ليس كيف تدعم النظام ونعجل منه، ولكن كيف نواجه هذه الآلية كي نبقي علي نسبة من البشر أحرارا من هذا الحصار الروحي، بعيدين عن أسلوب الحياة البيروقراطي الذي يتميز بقدرة فائقة علي التحكم والسيطرة (٧٨). وإذا كانت البيروقراطية كما رآها فيبر ما هي إلا تنظيم وإدارة وأسلوب عمل عقلاني ساد الحياة الأوربية الحديثة فيما بعد الثورة السياسية والصناعية. فأننا نجد أن فيبر لم يكن يهدف إلي أدانتها أو تأكيد كراهيته لها، ولكن كل ما في الأمر أنه أراد أن يعبر عن خوفه علي الحرية الإنسانية في ظل هذا التنظيم، وهو ما انعكس علي اهتمامه بالسلطة الكارزمية أحياناً وبقضايا التغير الاجتماعي أحياناً أخري. وتشكل بناءات السلطة ونماذجها القضية الثالثة التي أهتم بها فيبر من خلال ظواهر واقعه المحيط. حيث تشكل نماذج السلطة التنفيذية والعقلانية والكارزمية المقولات الأساسية لعلم اجتماع ماكس فيبر يتعلق بالسلطة. كما أنها تشكل الاستجابة الرئيسة لواقعه الثورة من قبل الفكر الأوربي خلال القرني التاسع عشر والعشرين. وما فعله فيبر بشأنها، كما يؤكد علماء الاجتماع، أنه صاغها من خلال تنميط يساعده علي دراسة أنساق السلطة، في إطار مختلف مجالات النظام الاجتماعي المتعددة عبر التاريخ الإنساني، الغربي والشرقي علي السواء(٧٩). ولا يعني فصل فيبر لنماذج السلطة الثلاث أنها منفصلة علي هذا النحو واقعياً، وإنما الفصل لأغراض تحليليه أساساً. إذ يؤكد أن المجتمع الواحد يمكن أن يتضمن نماذج السلطة الثلاث هذه (٨٠). ثم نجده يؤكد في مواضع كثيرة أن السلطة الكارزمنية، تخضع عادة بعد تأسيسها للعملية الروتينية حيث يتحول بعد فترة إلي الشكل التقليدي أو العقلاني للسلطة.

# المراجع


١- **Parsons:** The Structure of Social Action, New York. Mac-Grow- Hill. ١٩٣٧. P. ٥٠٠.

٢- **Martindalé D:** The Nature and Types of Sociolgical theory. London. Routledge & Kegan Pawl. ١٩٦٨. P. ٣٩٣

٣- **Nisbet, R:** The Social Philosophers, Community and Conflict in Western Thought. London. ١٩٧٣. P. ٤٤٢.

٤- **Don Martindale:** Op. cit. P. ٣٧٧.

٥- **Freund, Julien:** The Socilogy of Max Weber. Trans By M. ILFord. Penguin Books. ١٩٧٢. Pp. ٣٧-٣٨.

٦- **Don Martindale:** Op. cit. Pp. ٣٣٧-٣٧٨.

٧- **Ibid.** P. ٣٧٩

٨- **Aron, Raymond:** Main currents m sociological Thought. Trans By Richard Howard & Helen Waver. London. ١٩٦٧. P, ١٨٢.

٩- **Ibid.** P, ١٨٢

١٠- **Ibid.** P, ٢٠٨

١١- **Ibid.** P, ٢١٠

١٢- **Ibid.** P, ٢١٠

١٣- **Mayer, J. P:** Weber and German Polition. London. Fober and Tober. ١٩٣٤. P, ١٢٧.

١٤- **Dawe, A:** (The Two Sociologies) British Journal of Sociology. Vol. Xxl. No. ٢ June. ١٩٧٠. Pp. ٤٧٣- ٤٨٩

١٥- **Myudal, G:** Value in Social Theory, Routledge Kegan Paul. ١٩٥٧. Pp, ١١٩-١٦٥

١٦- **J. Freund!** Op. Cit. Pp. ٦٠-٦١

١٧- **R. Aron:** Op. Cit. Pp. ١٧٩ – ١٨٠

١٨- **Giddens, Anthony:** Maxweber and The Development of Capitalism. Sociology. Vol. ٤. ١٩٧٠. Pp. ٢٨٩ – ٣١٠ esp. P. ٢٩٣.

١٩- **R. aron:** Op. Cit. Pp. ١٥٨ – ١٨٦.

٢٠- **Weber, Max:** Objectivity in Social Science and Social Policy. In Methodology in the Social Sciences. Free Press. Chicago. ١٩٤٩ p, ٦٨.

٢١- **Rex, John:** (Typology and Objectivity: A Comment on Webers Four Sociological Method in Arun Sahay: Max Weber and Modern Sociology. Routledge & Kegan Paul. London. ١٩٧١ . pp, ١٧-٣٠. esp, ٣٠.

٢٢- **Don Martindale:** Op, Cit. p, ٢٨٠.

٢٣- **Aron, Raymond:** German Sociology. Trans by M. and t. Bottomore. III. The Free Press. ١٩٥٧. p, ٥٦.

٢٤- **M. Weber:** Op, Cit. pp. ٧٦ – ٧٧.

٢٥- **Weber, Max:** Economy and Society. Bedminster Press New York. ١٩٦٨. p, ١١-١٢.

٢٦- **Don Martindale:** Op, Cit. p, ٣٧٩.

٢٧- **T. Parsons:** The Structure of Social Action pp, ٥١٦-٥١٧.

٢٨- **J. Freund:** Op, Cit. p, ٤١.

٢٩- **Don Martindale:** Op, Cit. p, ٣٧٨

٣٠- **R. Aron:** Op, Cit. pp, ٢٠٦ – ٢٠٧.

٣١- **Ibid.** p, ٢١٨.

٣٢- **Don Martindale:** Op, Cit. p, ٣٨١

٣٣- **Lazars Feld & A. Obserschall:** Max Weber and empirical Social research. Amer. Soc. Rex. Voo. ٣٠. No. ٢. April ١٩٦٥. pp, ١٨٥-١٩٨.

٣٦- **J. Rex:** OP, Cit. : p, ٢٠.

٣٧- **Salomon, Albert:** German Sociology in George Gurvitch and Wilbert E. Moore: Twentieth – Century Sociology- New York- The Philosophical Library. ١٩٤٥. p, ٥٩٦, and See also. Irving Zeitlin: Ideology and the Developmet of sociological theory. N. J: Prentice- Hall, ١٩٦٨.

٣٨- **Irving Zeitlin:** Op, Cit. pp, ١١١ – ١١٢.

٣٩- **T. Parsons:** The Structure of Social Action. P, ٥٠٤.

٤٠- **Parson, T.:** Capitalism in recent German Literature: Sombart and Max Weber, Journal of Political economy. Vol. ١. No. ٣٦. ١٩٢٨. pp, ٦٤١-٦٦١. esp. ٦٤٧.

٤١- **R. Aron:** Main Curents of Sociological thought. Pp, ٢١٨-٢١٩.

٤٢- **J. Freund:** Op, Cit. p, ٦٥.

٤٣- **M. Weber:** The Methodology of the Social Sciences. P, ١٠٣.

٤٤-**Weber, Max:** The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism. Trans by: T. Parsons. New York. ١٩٢٨. p, ٢٣.

٤٥- **T. Parsons:** Capitalism in vecent German Literature. P, ٦٥٦.

٤٦- **Weber, Max:** The Religion of India. Trans By: Hams Girth and Don Martindale. Gleonce. III.,The Free Press. ١٩٥٨, p. ١١١.

٤٧- **R. Aron:** Main Currents of Sociological thought, p, ٢٢٨.

٤٨- **Ibid.** pp, ١٩١ – ١٩٢

٤٩- **Ibid.** pp, ٢٠٠ – ٨١٩

٥٠- **M. Weber:** The protestant Ethic and the Spirit of Capitalism. P, ٥٥.

٥١- **T. Parsons:** The Structure of Social Action. P, ٥٧١.

٥٢- **T. Parsons:** Capitalism in recent Greman Liteeature. P, ٦٥٦.

٥٣- **R. Aron:** Main Currents of Sociological thought. pp, ٢٠٩-٢١٠

٥٤-**M. Weber:** The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism p. ١٦٠

٥٥- **T. Parsons:** The Structure of Social Action. Pp, ٥٠٦-٥٠٧

٥٦- **M. Weber:** The Protestant Ethic and the spirit of Capitalism Pp, ٦٦-٦٨.

٥٧- **Ibid.** pp, ٦٠-٧٢

٥٨- **R. Aron:** Main Currents of Sociological thought. pp, ٢٠٧-٢٠٨

٥٩-**M. Weber:** The protestant Ethic and the Spirit of Capitalism Pp, ٥٩-٦٠.

٦٠- **T. parsons:** The Structure of Social Action. P, ٥٠٥

٦١- **Irving Zeitlin:** Op, Cit. p, ١٤٢

٦٢- **Ibid.** p, ١٤٣

٦٣- **T. Parsons:** The Structure of Social Action .

٦٤- **Ibid.** p, ٦٦٩

٦٥- **Ibid.** p, ٦٧٠

٦٦- **R. Aron:** Op. Cit. p. ١٩١

٦٧- **M. Weber:** The Methodology of The Social Sciences. P, ٩٠

٦٨- **R. Aron:** Op. Cit. p, ٢٠٠

٦٩- **Ibid.** pp, ٢٠٨ – ٢٠٩

٧٠- **J. Rex:** Typology and Objectivity. Pp. ٢٦٠ – ٢٦١

٧١- **T. Parsons:** The Structure of Social Action. Pp, ٦٢٠ – ٦٢١

٧٢- **Giddens. A:** Durkheim as a Review Critic. Amer. Soc. Rev. Vol. ١٨. ١٩٧٠. pp. ١٧١ – ١٩٦

٧٣- **R. Aron:** Op. Cit. pp. ٢٠٩ – ٢١٠

٧٤- **T. Parsons:** The Structure of Social Action. P. ٦٦٠.

٧٥- **Ibid.** pp. ٦٦١

٧٦- **R. Nisbet:** Op. Cit. p. ٤٣٧

٧٧- **Ibid.** pp. ٤٣٨ – ٤٣٩

٧٨- **J. P. Mayer:** Op. Cit. pp, ١٢٧ – ١٢٨

٧٩- **R. Nisbet:** Op. Cit. p. ٤٣٩

٨٠- **Ibid.** p, ٤٤٢

## الفصل الثاني
## البناء المنهجي لنظرية ماكس فيبر

### تمهيد

نستطيع القول بأن قضايا البناء المنهجي لنظرية ماكس فيبر قد شكلت نقلـــه هامة في تاريخ النظرية الاجتماعية خاصة وعلم الاجتماع خاصة وعلم الاجــتماع بصـــورة عامة. ويمكن القول بأن المنهجية الخاصة بماكس فيبر كانـــت نتـــيجة لفاعلـــية عامليـــن أساسين، العامل الأول يتمثل في أن الفكر الوضعي، الذي أصبح أساساً للمنهج في علم الاجتماع من خلال سان سيمون وأوجســـت كونـــت وإميل دوركيم، قد اتسع إلي مداه الطبيعي، حيث أصبح مـــنهج العلوم الطبيعة هو المنهج الذي تبنته العلوم الاجتماعي، بيد أنه برغم المـــدي الـــذي بلغه تطبيق هذا المنهج في إطار العلوم الاجتماعية، فقد بدأت تظهر بعض الانتقادات المتعلقة بمدي المماثلة بين مادة العلوم الطبيعية ومادة العلوم الإنسانية، وارتباطاً بذلك، مدي أهمية الوصول إلي قوانين تكون قادرة علي تحديد طبيعة التفاعل في مجال الظواهر الإنسانية وضبطها.

ويـــتعلق العامل الثاني بطبيعة الفكر المثالي. وهو الفكر الذي عايش الفكـــر الوضـــعي، باعتـــبار كونهما معاً نتاجاً لفكر التنوير. حيث بدأ الفكر المثالـــي الذي بطرح نفسه قوياً من خلال الماركسية تارة، ومن خلال ماكس فيـــبر تارة أخري، وإذا كان للفكر المثالي تطوراته النظرية بشأن الواقع. فإن له تأكيداته وقناعاته المنهجية بشأن دراسة هذا الواقع. إذ يؤكد هذا التيار علي تمـــيز الظواهر الإنسانية عن الظاهر الطبيعية، باعتبار أن الظواهر الإنسانية هي نتاجاً لفاعلية سلوكيات بشرية لها معاني، ومن الضروري أن نسعي إلي فهمهـــا، وهـــو الأمـــر الذي يتطلب من التأكيد علي العنصر الذاتي في الفهم ليصـــبح تفهمـــا لمعانـــي هـــذه الظواهر، ومحاولة إدراك تفاصيلها الدقيقة باعتبارها مفرداً قبل أن تخضع لأي اطراد.

بالنظر إلي هذين العاملين نجد أن ماكس فيبر قد وقف موقف وسطا بيـن المنهجـية الوضعية والمنهجية المثالية، واستنادا إلي هذا المنطق، وفي محاولــة الوصول إلي أكثر المنهجيات ملائمة لعلم الاجتماع، ولطبيعة المادة التي تشكل نطاق فاعلية هذا العلم. في هذا الإطار نجد أن ماكس فيبر قد قدم إسـهامات عديـدة سـواء فيما يتعلق بمكانة علم الاجتماع بين العلوم أو في طبـيعة تداخـل الذاتـية والموضوعية في إدراك الواقعة الاجتماعية، أو في تأكيده علي السببية الجزئية وليست الكلية فقط، ثم في إسهاماته العقلية البارزة والمتمـثلة في صياغة النماذج المثالية، كوسائل قياسية وتفسيرية تيسر مهمة الباحث في علم الاجتماع، وهي القضايا التي سوف نتعرض لها بالتحليل في الصفحات التالية.

## أولاً : فيبر والحوار حول مكانة علم الاجتماع .

في مناقشته لقضية تصنيف العلوم ومكانة علم الاجتماع تأثر ماكس فيبر إلي حد كبير بمنجزات العلوم الطبيعية التي تجسدت حوله والتي تتمثل في تعمق الـثورة الصـناعية وانتشار المناخ العقلاني في التفكير. ومن ثم وجدنا في كـتاباته اهتماماً بالعلم والعقلانية المستندة إليه. وهو في ذلك مثل ينتشه يعتقد أن العلـم يستطيع أن يساعد البشر بالوسائل التي يتيحها وليس بالغايات. ذلك لأن العلـم لا يستطيع أنْ يدلنا علي القيم الحقيقية True Values ، ومن ثم فالصـراع بيـن القيم، أو بين الآلهة كما يحلو له التعبير بذلك، مسألة حتمية وبخاصة في المجتمعات الحديثة التي تتسم بالتعقيد. هذا بالإضافة إلي أنه من المسـتحيل ترتيب القيم العاملة من خلال العلم بالنظر إلي مقياس شامل متفق علـيه (١).فـي إطار ذلك فأن كل ما يستطيع العلم أن يمدنا به هو الوضوح. وفـي حالـة العلم الاجتماعي، الوضوح فيما يتعلق بسلوكنا من حيث دوافعه وغاياتـه ونـتائجه، ذلك لأن العلم يساعد علي تبصير طبيعة التوجيه القيمي لأفعـال البشر وأنماط القيم التي ينبغي عليهم اعتناقها. هذا بالإضافة إلي أنه

يساعد علي تبسير وسائل تحقيق قيم معينة، وتحديد تكاليف نتائج ذلك بالنسبة لقيم أخري[٢]. يعني ذلك أن علوم الثقافة – التاريخ وعلم الاجتماع – تعمل علي فهم الإنتاج الإنساني الذي يخلق القيم. في إطار ذلك فإنه ينبغي أن يقال أن العلم ما هو إلا جهد عقلاني يتحدد هدفه الرئيسي في الوصول إلي أحكام تتعلق بالحقيقة ذات الصدق الشامل[٣]. فهدف العالم أذن هو الوصول إلي قضايا تتعلق بالحقيقة أو الوصول إلي بعض العلاقات السببية، أو بعض التفسيرات الفعالة ذات الصدق الشامل. وبهذا المعني يعتبر البحث العلمي مثالاً للسلوك العقلاني بالنظر إلي الهدف ما دام هذا الهدف يعتبر حقيقة ذات صدق شامل. غير أن هذا الهدف في ذاته يتحدد بواسطة حكم قيمي، أعني أن قيمة الصدق تتضح أو تتكشف بواسطة البراهين والحقائق ذات الصدق الشامل. بذلك يعتبر السلوك العلمي جمعاً بين الفعل العقلاني بالنظر إلي الهدف والفعل العقلاني بالنظر إلي القيمة . فالعلم كما يدركه فيبر يعتبر أحد جوانب عملية الترشيد المميزة للمجتمعات الغربية الحديثة. بالإضافة إلي ذلك نجد أن فيبر يؤكد أن العلوم التاريخية السوسيولوجية تمثل في أيامنا هذه ظاهرة تاريخية فريدة، حيث لم يسبق ذلك جهد فكري معادل لهذا الإدراك العقلاني لتطور المجتمعات وأدائها[٤]. وبعد أن يفرغ فيبر من توضيح ماهية العلم، وأهميته المحورية في هذه المرحلة نجده يوضح أن الجهد العلمي يتميز بالخصائص الرئيسية التالية:

١- إذ يعتبر نقص العلم وعدم اكتماله Incompleteness من الخواص للعلم الحديث. فليس هناك غريب علي أسلوب ماكس فيبر في التفكير من تلك الصورة المحببة إلي أوجست كونت. والتي تتعلق بالعلم الذي امتلك كل ما هو أساسي، العلم الذي تمكن من تأسيس نسق أساسي مغلق يتكون من القوانين الأساسية المحددة. ثم يؤكد ماكس فيبر أن مفهوم الماضي عن العلم يشير إلي أنه عبارة عن نسق كامل

بمعنـــي دائماً يطمح إلي إدراك مباديء الحقيقة الواقعية أو القوانين الأساســية للوجود. أما العلم من وجهة نظر ماكس فيبر فيتميز بأنه بطبيعــته فــي حالة تطور ونمو دائم، ومن ثم فلا صلة له بالقضايا المــتعلقة بالمعاني الجوهرية للظواهر، ذلك أن العلم يعمل دائباً نحو هــدف لامتــناه أبدا، وتتجدد تساؤلاته بشأن موضوع بحثه بلا نهاية وتــنطوي خاصية نقص العلم وعدم اكتماله هذه علي معنين: المعني الأول ينطــبق علـــي العلم طبيعياً كان أو ثقافياً ، ذلك لأن المعرفة العلمية عبارة عن غزو Conquest دائم لا نهاية له أبدا، فالعلم هو نمــوه أو تطــوره الذاتي. أما المعني لعدم اكتمال العلم فينطبق علي علــوم الحقــيقة الإنســانية فقط ،أعني علي الثقافة والتاريخ. حيث تخضـــع المعرفة في هذا الإطار للتساؤلات التي قد يطرحها الباحث بشـــأن الحقــيقة. غــير أنه كلما تقدم التاريخ فأن عالم الاجتماع أو المــؤرخ يجد نفسه يطرح تساؤلات جديدة بشأن الحقيقة في ماضيها وحاضـــرها ترتبط بظهور فاعليته متغيرات جديدة . وبتعبير ماكس فيبر فأنه من الممكن اكتمال التاريخ وعلم الاجتماع إذا اكتمل التطور الإنساني وتحددت له نهايته(٥).

٢- وتعتـــبر الموضـــوعية هـــي الخاصـــية الثانية للعلم . حيث تتحقق الموضـــوعية عـــن طريق صدق النتائج العلمية وثباتها بالنسبة لكل هـــؤلاء الذيـــن يهتمون بالصدق العلمي فيما يتعلق بالواقعة موضع الاهـــتمام والدراسة، وثانياً برفض أحكام القيمة. فالعلم قد يدرس أو يلاحـــظ الدجال Charltan ،مثلما يدرس ويلاحظ الطبيب الحقيقي. يـــدرس أو يلاحظ الإنسان الديماجوجي، مثلما يلاحظ الإنسان العظيم الـــذي يـــنجز أفعالاً خالدة، بنفس الحياد الموضوعي والانفصال عن الموضـــوعي والانفصال عن الموضوع موضع الدراسة(٦). ولتحقيق

الموضوعية نجد أن فيبر يترسم طريقاً منهجيا متدرج يبدؤه بداية ذاتية. حيث يحاول الباحث تعقل دينامية حقيقة أو ظاهرة معينة عن طريق محاولة الإمساك بمعناها الجوهري. ثم يتدرج من ذلك، بالنظر إلي جمع من المحكات المنهجية، حتي يستحيل الإدراك الذاتي الفردي إلي فهم علمي موضوعي له صدقة وثباته الشامل – عن طريق من الإجراءات المنهجية التي تيسر الإدراك الموضوعي كالاستعانة بالإطار النظري في الاقتراب من الحقيقة وانتقاء عناصرها الجوهرية. ثم المقارنة المستندة إلي النموذج المثالي كأجراء قياسي يهدف إلي تحقيق أكبر قدر من الموضوعية[٧].

٣- وتعتبر النسبية الخاصية الثالثة المميزة للعلم – وتعني النسبية بالنسبة له تنوع العوامل والأسباب الجوهرية، وفقاً لطبيعة السياق والموضوع موضع الدراسة – وتعني أيضاً الارتباط بالاحتمالية علي حساب الحتمية المطلقة التي قد تعزي لأي من العوامل المؤكدة للثبات أو المثيرة للتغير. وقد تتعلق النسبية أساساً بطبيعة الإطار النظري الذي ارتضاه الباحث منطقاً يدرك أو يجرد بالنظر إليه الواقعة موضع الدراسة. غير أنها قد تعني أيضاً أن الاهتمام العلمي بسياق معين لا ينصب علي كلية الحقائق الممكن معرفتها. ولا علي كل الحقائق المتعلقة بالظواهر الواقعية موضع الدراسة،وإنما ينصب أساساً علي بعض عناصرها المنتقاة. ومن ثم ففي أي لحظة نجد أن الكم الكامل لمعرفة التي لدينا ليست انعكاساً كاملاً للحقيقة الواقعية المدركة إنسانيا[٨].فإذا انطبق ما سبق علي العلم بصفة عامة، فما هي إذا ماهية علم الاجتماع ووظيفته من وجهة نظر ماكس فيبر.

مبدئياً يعرف ماكس فيبر علم الاجتماع بأنه العلم الذي يحاول إنجاز الفهم التفسيري Interpretative Sociology للفعل الاجتماعي من

أجل الوصول إلي نتائجه ومساراته(٩). ويؤكد ماكس فيبر أن التفسير في العلوم الثقافية يتم وفقا لمستويات عديدة نميز من بينها المستويات الثلاثة التالية:

أ- المستوي الأول وهو المستوي الذي يمكن تسميته بالتفسير المتعلق بفقة اللغة Philologcal Interpretation وهو يتكون من استيعاب المعني الحرفي للنص، وذلك من خلال نقد الدراسات والوثائق إلخ. ويعتبر ذلك هو العمل التحضيري المطلوب في كل العلوم الإنسانية والذي يصاحب أي دراسة للمصادر.

ب- المستوي الثاني ، وهو ما يمكن أن نسميه بالتفسير الأخلاقي أو التقويمي Ethical or Evaluastive وهو ما يتكون من تعيين قيمة معينة لموضوع الاهتمام . ثم تأسيس حكم ملائم أو غير ملائم بشأنه، ويتدرج هذا النموذج للتفسير من التقويمات الشعورية أو العاطفية الخالصة عن طريق التعاطف Empathy مع أحداث وظروف حياتنا اليومية، وحتي المجالات العليا الأكثر تحديداً للمقدسات والأحكام الأخلاقية.

ج- أما المستوي الثالث فهو ما يسببه بالتفسير العقلاني Rational Interpertation الذي يكمن هدفه في أنه يساعدنا علي فهم العلاقات ذات المعني من خلال السببية، أو من خلال التفهم، بين مختلف عناصر ذات الظاهرة (١٠). يبقي بعد ذلك أن نوضح مسألتين. حيث تتعلق الأولي بعلاقة علم الاجتماع بمختلف العلوم الأخري، أما الثانية فتتعلق بالتركيبة الأساسية لعلم الاجتماع كعلم، ثم مكانته بين مختلف العلوم بالنظر إلي طبيعته الأساسية، أما فيما يتعلق بعلاقة علم الاجتماع بالعلوم الأخري، فبالنظر إلي الخلاف الذي عاصره فيبر والذي وقع بين المثالية المحدثة من ناحية وبين الكانتية المحدثة من ناحية أخري. والذي يتعلق بتحديد انتماء علم الاجتماع. هل ينبغي أن ينتمي إلي زمرة العلوم الطبيعية التي تهتم بدراسة الحقائق

بهـــدف الوصـــول إلي القوانين العامة التي تحدد طبيعة العلاقات السببية بين العناصـــر ، أم أن علم الاجتماع ينبغي أن يكون ضمن العلوم الثقافية، ومن ثم فأن عليه أن ينجو منحي ذاتياً نحو الحقيقة بهدف تفهم معناها عن طريق ربط المعاني بعناصرها الأساسية، كل معني بالأخر[١١].في إطار ذلك يؤكد ماكس فيـــبر علـــي تصـــنيف العلوم إلي قسمين، لكل منهما موضوع اهتمام غالب. الأولـــي مجموعـــة العلـــوم التاريخية التي تركز انتباهها علي ظواهر واقعية تحـــاول بقـــدر الإمكـــان تحديد أسبابها ونتائجها. ولا نجاز ذلك فهي تحاول الاستعانة بمساعدة تصورية أياً كانت طبيعتها. والأمثلة علي ذلك الجيولوجيا فـــي مجال العلم الطبيعي والمترويولوجيا Meterorology . ويعتبر التاريخ بشـــكل أساسي مثالاً لها في المجال الاجتماعي بالإضافة إلي الأنثروبولوجيا. أمـــا المجموعة الأخرى من العلوم، فهي مجموعة العلوم التحليلية، وهي التي تهـــتم أساســـاً ببناء انساق النظرية العامة الصادقة بالنظر إلي الكم الهائل من الظواهـــر الواقعـــية التي تلائم هذه الأنساق دراستها[١٢]. فما هي أذن طبيعة وموقـــع علـــم الاجـــتماع بالنظر إلي هاتين المجموعتين . يؤكد فيبر أن علم الاجـــتماع من ناحية علم اجتماع تاريخي حينما يهتم بالنتائج الفريدة والمتعلقة بواقـــع اجتماعـــي وثقافـــي محـــدد. أي حيـــنما ينصب اهتمامه علي المفرد التاريخـــي، بحيـــث يكـــون نمط التفسير الذي يهدف إليه في هذا الإطار هو التفســـير الســـببي أو التفسير عن طريق تفهم المعني. وتكون المعطيات التي يحاول البحث عنها في معاني هذا المفرد أو شروطه الواقعية. وهو من ناحية أخـــري علـــم اجتماع تحليلي ما دام يهدف إلي الوصول إلي القوانين السببية التـــي تحكم الظواهر الاجتماعية، بحيث يكون منهجه في ذلك هو التفسيرات الســـببية أو تلك الكاشفة المعني Meaningful Interpnetation وذلك من خـــلال المعطـــيات المـــتعلقة بمعانـــي الموضوع موضع الدراسة أو ظروفه الواقعية[١٣]. خلاصة القول أن علم الاجتماع هو علم الاجتماع التاريخي الذي

يهتم بالمفرد التاريخي. وهو أيضا العلم التحليلي الذي يهدف إلي بناء الأنساق النظرية التي يتم تجريد مقولاتها الأساسية من خلال دراسة عديد من المفردات التاريخية، والتي يمكن الاستفادة منها في بناء النسق النظري بهدف استخدامه في تقديم فهم وإدراك علمي للمفرد التاريخي. يضاف إلي ذلك أن فيبر يرفض بإصرار تصور أوجست كونت لتصنيف العلوم وترتيبها كل بالنظر إلي الآخر. حيث تتأسس العلوم الاجتماعية مستندة إلي العلوم الطبيعة الكائنة فقط. ولقد دفع ذلك الاعتقاد إلي رفض أوجست كونت أن يكون علم النفس علماً مستقلاً، واعتبره فرعاً من البيولوجيا. إذا اعتقد أن هناك علماً واحداً للمجتمع بينما هناك علوم طبيعية كثيرة بالنظر إلي ذلك يؤكد ماكس فيبر أنه يمكن أن تكون هناك علوم ما دامت هناك مداخل كثيرة إلي المشكلة ومن ثم فليس من حقنا أن نفترض أننا قد استنفدنا كل المداخل الممكنة إلي الحقيقة(١٤).ولنفس السبب يسجل فيبر رفضه الثاني، حيث اعتبر أنه من السذاجة أن يحاول بعض الفلاسفة تأسيس أساس مشترك للعلوم الإنسانية عن طريق إرجاعها مثلاً إلي علم النفس. حيث يؤكد أنه ما دام لكل علم مسلماته فأنه بذلك يكون مستقلاً. فليس هناك علم يمكن أن يكون نموذجاً لمجموعة من العلوم الأخري. فمكانة علم الاجتماع كعلم مستقل تعتمد أساساً من وجهة نظر ماكس فيبر علي طبيعة المشاكل أو القضايا التي يتصدي لها(١٥).

## ثانياً : فيبر والتأليف بين الذاتية والموضوعية .

ما هي المداخل الأساسية لأدراك طبيعة التفاعل الكائن بالواقع الاجتماعي، حيث شكلت البرهنة التي قادها فيبر فيما يتعلق بهذه المقولة صياغة حاول فيبر من خلالها أو يوحد بين الإدراك الذاتي للباحث كمدخل لإدراك العناصر الأساسية للواقعة،وبين الشروط الموضوعية الواجبة أن تكون في أي فهم علمي يبدأ من المدركات الجزئية وينتهي بالتعميمات العامة التي ينتفي في إطارها كل ما هو ذاتي. ولتحقيق ذلك نجد أن فيبر يتبع الاستراتيجية

الانتقائـية التـــي تنتقي في إطارها عناصر من كل منهما. ثم محاولة التأليف فــيما بيــنها لتوفــير نمط الفهم الذي أراده. غير أنه لتوضيح الاستراتيجية المنهجـية لماكس فيبر في هذا الصدد، فأنه ينبغي التعرض لكل من الإدراك الذاتـــي والموضــوعي بهــدف تحديد المداخل التي ألف فيبر بينها في إطار موقــف جديــد. وفيما يتعلق بالإدراك الذاتي، فأن الاهتمام به بدأ مع مسألة أثــيرت تتعلق بتصنيف العلوم، حيث كانت هذه القضية موضع جدل وخلاف بيــن المثالــية المحدثة كما أشرنا من ناحية وبين الكانتية المحدثة من ناحية أخــري. فـــي هــذا الصدد نجد الكانتية المحدثة تذكر أن العلوم الاجتماعية والطبيعـــية علـــي الســواء تبحــث عن العلاقات السببية التي تحكم مختلف الظواهــر . في مقابل ذلك نجد أن المثالية المحدثة تذكر أن العلوم الطبيعية هـــي التـــي عليها أن تؤسس القوانين السببية، بينما تحاول العلوم الاجتماعية والثقافية إدراك المعني. في إطار ذلك نجد أن الإدراك علي هذا النحو يصل المعانـــي بعضها ببعض حتي يتفهم الباحث موضوع البحث بشكل مباشر من خلال الحدس(١٦). ويركز الإدراك الذاتي للفعل أو السلوك علي تحديد المعني الكلـــي الكامن وراء الفعل أو الذي يتولي صياغة تماسك عناصره الأساسية، بذلــك يصـــبح المعني هو تلك العلاقة التي ندركها شعورياً بين وسائل الفعل وغاياته. حيث يمكن لهذا المعني أن ينتظم بأساليب عديدة. وقد يدرك المعني بشــكل مباشر، مثل معني القضية ٢+٢= ٤ حينما نقرؤها أو نسمعها . وقد يكــون إدراك المعني له الطابع التوضيحي Explnatory كحينما نفهم سبب إنجـــاز الفـــاعل لفعله بالنظر إلي دوافعه ، حيث يؤدي فهم الفعل أو السلوك بالنظر إلي دوافعه إلي إحلاله في إطار نشاط أكثر اتساعاً. ومن ناحية أخري قد يكون المعني بارزاً في أحد أنماط السلوك، بينما هو يمثل مكانة ثانوية في ســلوك آخــر. بل أننا في بعض الأحيان نجد أنه من الصعب عزل عنصر المعنـــي كمكــون ســببي في السلوك(١٧). بل أنه مما يميز الملامح الأساسية

للمعني أننا نحاول إدراك الفعل بالنظر إلي مقدماته المزامنة دون الإشارة إلي أيـــة مباديء أو قوانين عامة[١٨]، ذلك يعني أن مدخل إدراك الفعل أو الواقعة يركــز كثيراً علي خصوصيتها. ومن الواضح أن المدخل الذاتي يتميز بعدة خصـــائص تكســبه هويته ويؤدي توفرها إلي تأسيسه كمدخل فعال لإدراك معنـــي الحقيقة أو الواقعة موضع الدراسة. أول هذه الخصائص تتمثل في أنه نظـــراً لأن الإدراك الذاتـــي يرتـــبط بالنظريات الحدسية التي تشكل الترشيد المنهجي Methodnlogical Rationalization للجناح الجمعي Collectivist Branch مـــن الفكـــر الألماني- فأنه أهتم أساساً باستيعاب Grasp أو فهم الكليات الثقافية Cultural ككليات لها خصوصيتها المتفردة. وارتبط ذلك في المجـــال الاجتماعي بالتفهم Verstehen حيث إدراك جوهر الكليات الثقافية في إطار نسق ما من المعاني، تبدو الحقائق الواقعية في إطاره مجرد تجليات أو تعبـــيرات عنه. ولقد أدت سادة هذا الاتجاه وتحوله إلي مذهب منهجي إلي احـــتوائه علي قضيتين متصلتين منطقياً . الأولي تعني أن التعميم في مجال الظواهـــر البشـــرية يمكن أن يعني فقط استيعاب أو فهم الكليات الثقافية في خصوصـــيتها وتفردها الكامل. أما الثانية فتشير إلي أن استيعاب هذه الكليات أو فهمها عادة ما يتخذ شكل الحدس المباشر. أعني الإدراك المباشر للمعاني بدون تدخل المفاهيم من أي نوع. في إطار ذلك نجد أن فيبر قد هاجم القضية الثانـــية بيـــنما كانت علاقته بالأولي معقدة للغاية[١٩]. أما فيما يتعلق بالقضية الأولـــي الخاصـــة بتفرد الحقيقة الواقعية من وجهة نظر ( المدخل الذاتي) . وهـــي الخاصية التي تؤدي إلي فشل كثير من النظريات التي تفترض إمكانية اســـتنباط الحقيقة الواقعية من المفاهيم. حيث يؤكد أصحاب هذه النظريات أنه إذا تمكـــن العلماء من الكشف باستمرار عن القوانين العامة فأنه سوف يصبح بإمكانـــنا يومـــاً مـــا تأسيس نسق متكامل من المفاهيم،له فاعليته في إمكانية استنباط الواقع منه[٢٠]. ويذهب فيبر إلي أن الذين يؤكدون ذلك يتجاهلون أن

المفهــوم انتقائـــي بطبيعته، ومن ثم فأن كم المفاهيم والانتقاءات لا يمكن أن يتســاوي أبـــداً مـــع الكم الكلي للحقيقة الواقعية. فاللانهائي ليس تراكماً من الأشــياء النهائـــية. الدلالـــة علي ذلك أن الأنساق الفلسفية التي سادت القرن ســـادت القــرن التاســـع عشـــر عمقت توقعاتنا بأشياء كثيرة لم يتحقق منها شـــيء[٢١]. وهــو فـــي ذلـــك ينتقد بشكل ضمني التوقعات المستقبلية للنسق الماركسي فيما يتعلق بانهيار الرأسمالية وتأسيس المجتمع الشيوعي وانتشارها كونياً من خلال ثورة بروليتارية كاسحة.يضاف إلي ذلك أن بالحقيقة الواقعية مـــا يجعـــل مســـألة استنباطها من المفاهيم أمراً مستعصياً. ذلك لأن الحقيقة الواقعـــية لا عقلانية Irrational بطبيعتها. بينما المفاهيم والتعميمات العامة عقلانـــية في أساسها. ومن ثم فلا يمكن للأثنين أن يتقابلا . بذلك يوافق فيبر علـــي القـــول بأن الحقيقة الواقعية من طبيعتها أنها متنوعة ولا نهائية بشكل كـــامل، حتـــي أنـــه يصـــعب بالنظر إلي ثرائها علي هذا النحو، وواقعيتها، وفرديـــتها، استيعابها أو إدراكها بالنظر إلي نسق من المفاهيم المجردة. غير أن ذلك لا ينبغي – علي ما يذهب فيبر – أن يشكل خلافاً بين العلوم الطبيعية والاجتماعـــي[٢٢]. ويعتـــبر الفهم من الداخل الخاصية الثانية للمدخل الذاتي. بالـــنظر إلـــي ذلـــك يؤكد فيبر أنه فيما يتعلق بالظاهرة فانه يمكننا ملاحظة المســـار الخارجي للأحداث فقط. وهو ما يؤدي بنا إلي الكشف عن عناصر الاطراد. أما فيما يتعلق بالسلوك الإنساني فانه وان كانت هناك إمكانية لذلك. إلا أن الباحـــث يكـــون فـــي العادة قادراً علي نسبة دوافع السلوك أو الوقائع بالـــنظر إلـــي البشر، أي أنه يقوم بتفسير أفعالهم وكلماتهم بالنظر إلي كونها تعبيرات عن هذه الدوافع وهو ما يعني الاقتراب من الجانب الذاتي للفعل أو السلوك. وما دامت الحقائق المتعلقة بالفعل البشري تساعد علي ذلك يشير إلي الأهمـــية المحوريـــة التـــي يلعـــبها مفهوم التفهم في البناء المنهجي لماكس فيـــبر[٢٣]. وفـــي أعقاب ذلك يؤكد فيبر أن المعرفة بالحقيقة الثقافية عادة ما

تكـــون من وجهة نظر خاصة. حيث أنه بدون الأفكار التقويمية للباحث فأنه ســـوف تســـتحيل أية معرفة ذات معني بالنسبة للحقيقة الواقعية(٢٤). ومن ثم فلـــيس هناك تحليل علمي مطلق الموضوعية فيما يتعلق بالثقافة أو الظواهر الاجتماعـــية مســـتقل عـــن وجهـــات النظر الخاصة أو تلك التي من جانب واحـــد(٢٥). وهو ما يعني في نهاية الأمر افتراض أن إدراك الحقيقة الواقعية يتم عادة بالنظر إلي إطار نظري. وعادة ما تختلف الأطر النظرية باختلاف اتجاهـــات الباحثين، وباختلاف الفروض النظرية المشكلة بالنظر إلي أطرهم النظرية. البرهنة علي ذلك تباين التحليل الاقتصادي والاجتماعي لنشأة النظام الرأسمالي واستمراره بين كل من كارل ماركس. وماكس فيبر، حيث يفضل الأول تـــناول الحقيقة بالنظر إلي إطار نظري تؤكد افتراضاته علي محورية العوامـــل الاقتصادية بينما يتبني الثاني إطاراً نظرياً يؤكد علي منظمة الثقافة والقـــيم. وتعتـــبر إمكانـــية التنبؤ بالمستقبل والموقف من هذه المسألة أحدي الخـــواص المميزة للمدخل الذاتي ، حيث يستند ذلك إلي حقيقتين .الأولي أن هـــدف المعـــرفة الملائمة Adequate في مجال معين ليست أن تعرف كل الحقـــائق، أعني كل الحقيقة الواقعية، حيث يصبح مثل هذا الهدف مستحيلاً. ومـــن ثـــم فمعـــيار كفاءة المعرفة العلمية عادة ما يكون بالنظر إلي الغرض العلمي موضع الاهتمام والثانية أن معرفتنا لا تساعدنا علي التنبؤ بكل ظواهر المستقبل بكامل تفاصيلها الواقعية. ويستخدم فيبر مثال تناثر قطع الحجر التي عصـــفت بـــه الرياح. حيث لا يوجد علم يعرفه قادر علي التنبؤ الدقيق بحكم وشـــكل ومكـــان كل قطعة بعد هبوب العاصفة من واقع البيانات التي أمكن توفـــيرها قـــبل هبوبها. هذا في حين أن التنبؤ يرتفع مستواه في إطار العلوم الطبيعية لأن اهتمامنا ينصب أساساً علي جوانب الوقائع الطبيعية بالنظر إلي قوانين مجردة معروفة. بينما اهتمامنا في المسائل الاجتماعية يكون عادة عند مســـتوي آخر. وعلي أية حال فالتنبؤ عادة ما يكون بالنظر إلي مدي تأسيس

التعميم المجرد، فحينما يوجد هذا التعميم فأن التنبؤ عادة ما يتبعه[٢٦]. ومن الواضح أن مثل هذه التعميمات أكثر وجودا في العلوم الطبيعية منها في العلوم الاجتماعية التي تعمل علي تأسيس هذه التعميمات التي أن تتحكم في الظواهر الاجتماعية بالأسلوب المنهجي الملائم. ويرغم تأكيد فيبر علي أهمية المدخل الذاتي في إدراك الحقيقة الاجتماعية علي اعتبار أن استخدام الحدس في الظواهر الاجتماعية كان تابعاً لشيوع استخدامه في العلوم الطبيعية[٢٧].
فأننا نجده يوجه إلي المدخل الذاتي بعامة والحدس بشكل خاص مجموعة أساسية من الانتقادات. ومنذ البداية نجده ينتقد الحدسيين مؤكداً أنهم يخلطون بين مسألتين : الأولي تتعلق بالعمليات التي يمكن عن طريقها الوصول إلي المعرفة الصادقة. والثانية تتعلق بالأسس المنطقية لصدق هذه المعرفة[٢٨].
أما الانتقاد الثاني فيتمثل – من وجهة نظر فيبر – في أن الحدسين يخلطون(مادة التجربة الخام Row Data Experience بالمعرفة knowledge التي يمكن استخلاصها عن هذه المادة ). ونتيجة لذلك فالكل الذي نستطيع تأسيسه ليس مجرد انعكاس مبسط للخبرة البسيطة، وإنما يتضمن انتقاء منظماً لعناصر الخبرة أو التجربة. ويتضمن هذا الانتقاء أو التنسيق Systematization نسبة الخبرة أو التجربة إلي المفاهيم بما فيها المفاهيم العامة التي تؤدي دورها كأساس للحكم علي عناصر التجربة ذات الأهمية أو الدلالة بالنسبة للكل. حيث يصدق ذلك علي كل من العلوم الطبيعية والاجتماعية علي السواء[٢٩]. وينصب الانتقاد الثالث للمدخل الذاتي علي التفهم كمدخل للإدراك. إذ يؤكد أن الخبرة بالمضمون ذي المعني يرتبط بنوع من اليقين المباشر الذي لا يتوفر في معني المعطيات المتعلقة بالأحداث الطبيعية. وهي الحقيقة التي تؤكدها النظريات الحدسية. في إطار ذلك نجد أن فيبر يتهم أصحاب المدخل الذاتي والتفهم بنوع آخر من الخطط، فاليقين المباشر والناتج عن إدراك المعني يعتبر في أقصي حالاته مجرد عنصر في

ت لية البرهنة حول صدق المعرفة ومن ثم فهي في ذاتها ليست موضع تصديق أو ثقة. وإنما ينبغي اختبار صدقها بالنظر إلي نسق المفاهيم المتسقة عقلانيا. فإذا لم يتم الاختبار أو الفحص للتحقق من صدق الحدس المباشر فأن ذلك قد يؤدي إلي وجود سلسلة لا نهاية لها( من الأحكام الحدسية) التي تبتعد كثيراً عن الواقع. ولا يختلف ذلك عما هو كائن في العلوم الفيزيقية. حيث لا يمكن الاستناد إلي صدق الانطباعات المباشرة للمعني بدون نقد تصوري. إذ يعني ذلك أن هذا الانطباع الذي قد يصف الحقيقة يتم تصميمه بالنظر إلي نسق عام من المعرفة النظرية[٣٠]. ثم يذهب فيبر إلي أن حدسنا بالمعني قد يكون حقيقياً أو صحيحاً غير أن التفسير الحدسي قد لا يتسق مع نسق المفاهيم النظرية المتساوية عقلانياً. فإذا تطابق الحدس مع الإطار النظري، فأنه في هذه الحالة يمكن أن تشكيل معرفة. غير أنه بدون هذا التقويم بالنظر إلي النسق النظري فأن الباب يظل مفتوحاً لأي عدد من الادعاءات غير المضبوطة أو التي لا يمكن التحقق من صدقها. ثم ينتهي إلي القول بأن الموقف الحدسي لديه إمكانية الهروب من مسئولية الأحكام العلمية[٣١].

ويعتبر المدخل الموضوعي، الإطار الثاني الذي كان علي فيبر أن يستند إليه، بالإضافة إلي المدخل الذاتي، لصياغة موقفه النظري. هذا يرغم أن المدخل الموضوعي له استراتيجية في الإدراك المناقضة تماماً لاستراتيجية المدخل الذاتي. فبينما يؤكد المدخل الذاتي علي ضرورة التعميم في مواجهة التخصيص. إذ يتجه المدخل الموضوعي لإدراك الحقيقة من خلال ثلاثة أبعاد أساسية. الأول يتمثل في تخليص الحقيقة الموضوعية موضع الدراسة من كل جوانبها الخاصة التي قد تتميز بها. وذلك عن طريق إرجاع التباينات الكيفية إلي تكميمات قابلة للقياس يمكن أن تكون أساساً لمسلمة منطقية عامة[٣٢]. أما البعد الثاني فيتكامل مع الأول حيث يتركز الاهتمام علي الخصائص العامة للظواهر، بهدف تأسيس علاقات ضرورية ومطردة بينهما.

بحيث يقود ذلك إلي تأسيس نسق من العلاقات والقوانين التي تتزايد في عموميتها وتكون ذات طبيعة رياضية بقدر الإمكان. وتشكل في النهاية نسقاً استنتاجياً يبدأ بالقوانين والمبادئ الأساسية المجردة ذات الطابع البسيط[٣٣]. أما البعد الثالث فيتمثل في أنه إذا كنا قد تمكنا من تأسيس مجموعة التعميمات العامة التي يدرك الحقيقة بالنظر إليها، فإنه لكون هذه التعميمات ذات صدق وثبات، بالنسبة للحقيقة موضع الدراسة، فأنها تشكل بعداً يحتل المسافة بين الباحث وموضوعه الاهتمام، فتجعل فهمه غير مباشر بدلاً من كونه مباشراً. وبذلك فهي تخلص التناول العلمي للحقيقة الواقعية من كل تحيز ممكن قد يكون مصدره ذاتية الباحث وقيمة الذاتية[٣٤]. ويشكل الفهم من الخارج الخاصية الثانية للمدخل الموضوعي وهي خاصية تجعل علم الاجتماع يتخذ موقف مماثلاً من موقف العلم الطبيعي. حيث أنه إذا كان من الممكن في تناول وقائع الطبيعة أن نلاحظ مظاهرها الخارجية، للكشف عن عناصرها الاطراد في إطارها. فإنه يمكن إنجاز ذات الفهم في إطار الوقائع الاجتماعية، بالإضافة إلي إمكان فهمها بالنظر إلي دوافعها[٣٥]. ويشكل التكميم واستخدام المنهج الرياضي أحدي خواص المدخل الموضوعي. حيث يعتقد فيبر أن التكميم هو الطريق الوحيد إلي المعرفة العلمية الصادقة. وواقع الأمر أن التكميم والقياس ليسا سوي إجراءات منهجية، والمنهج الرياضي كغيره يتضمن انتقاء بعض جوانب الواقع اللانهائي، ومن ثم فهو صادق في إطار مسلماته فقط [٣٦].

ويهدف المنهج الرياضي أساساً إلي الكشف عن الاطرادات والتماثلات الكائنة في الظواهر موضع الاهتمام والدراسة. وذلك بهدف الوصول إلي العمليات التي تحكم مختلف تفاعلاتها. وفي أعقاب توضيح موقف ماكس فيبر من كل من المدخل الذاتي والموضوعي تعرض الآن لطبيعة الحل المنهجي الذي قدمه في هذا الصدد. وبنظرة عامة نري أن فيبر قد اختار

حسب المدخل الذاتي في الكشف عن الحقيقة موضع الدراسة، إلا أنه وضع مجموعة من الضوابط والمعايير العلمية التي توفر صفة الموضوعية للإدراكات الذاتية للباحث . من هذه المعايير مثلاً أن يكون للباحث علي وعي تام بموضوع بحثه. فليس من الملائم أن يقف خارج الموضوع كما يذهب دوركيم. حيث يعجزه ذلك عن إدراك الديناميات الداخلية للواقعة، ومن ثم يسقط في إطار معاملتها من خلال نوع من السببية الكلية التي تربط الظاهرة موضع الدراسة بظاهرة أخري من خلال علاقة خارجية. فالباحث في إطار ذلك يتعامل مع النتاج بينما المطلوب منه أن يتعامل مع المقدمات. كذلك نجد أن فيبر في المقابل يرفض الموقف الوجودي الذي ينادي باستغراق الباحث في موضوعه، بحيث يتحول إلي جزئية غير قادرة علي تجاوزه من خلال طرح شاملة علي علاقة الموضوع موضع الاهتمام بالسياق الذي يحتويه والباحث معاً. هنا نجد أن الحل الذي يقدمه فيبر يمثل فعلاً أحد النماذج المتميزة للخروج من هذه المعضلة. حيث يؤكد أنه إذا كان الباحث مهتماً اهتماماً عاطفياً بموضوع بحثه فإنه سوف يكون متصلاً به ومتحيزاً. ومن ثم فإذا كان علي الباحث أن يكون لديه شعور بأهمية ما يمارسه البشر من أجل أن يفهمهم جيداً ، فأنه في ذات الوقت عليه أن يفصل نفسه عن اهتمامه الشخصي، إذا كان يرغب في الكشف عن إجابة ذات صدق شامل لتساؤل أثير من منطق اهتمام خاص(٣٧).

أما المعيار الثاني لتحقيق الموضوعية فيتمثل في الإطار النظري الذي ينبغي أن يتبناه الباحث لتوجيه ملاحظاته الذاتية. في هذا الصدد يلعب الإطار النظري دور التوجيه القيمي للباحث. ولا تعني هذه التسمية أن له علاقة بأحكام القيمة أو المسائل الذاتية المرتبطة بالموضوع موضع الاهتمام. غير أن فيبر لا يعتقد في إمكانية تأسيس نسق نظري من هذا النوع يمكن أن يلقي قبولاً عاماً(٣٨). وذلك استنادا إلي فرضية أساسية في مشروعه النظري وهي

إمكانـــية تعـــدد زاويا الرؤية بالنسبة للحقيقة الواقعية.ويؤكد فيبر أن التوجيه القيمـــي يحـــدد التساؤلات الأساسية التي ينبغي طرحها بشأن الحقيقة موضع الدراســـة. فـــإذا سألنا المؤرخ عن سبب اهتمامه بالثورة الفرنسية أو بفلسفة نيتشه، أو إذا سألنا عالم الاجتماع عن سبب دراسته للعلاقات الاجتماعية في مســـتعمرة عمالـــية، أو الظروف المعيشية بين طلاب الجامعات، فإن أيهما ســـوف يجيب بأن هذه الموضوعات هامة وذات جاذبية بالنسبة له. أما لماذا هـــي هامـــة، فـــأن الإجابـــة علـــي ذلـــك عـــادة ما تكون بالنظر إلي القيم المرجعية(٣٩). إذا فعلي أساس التوجيه القيمي يستطيع الباحث أن ينجز انتقائية لـــبعض عناصر الحقيقة. وفي إطار هذا الانتقاء يعمل العالم أو الباحث علي تطبـــيق الإجـــراءات المعتادة للبحث العلمي كالملاحظة الدقيقة، نقد الأفكار، القـــيام بالسموح والتوثيقات، لتحديد العلاقات السببية، والمقارنة ،ألخ. وفي إطـــار هذا المستوي فأن علي الباحث أن يتجنب التقديرات التقويمية، بمعني الموافقـــة أو الرفض بناء علي أسباب شخصية خالصة. بل أن علي الباحث أيضاً أن ييسر الفرصة للقاريء لكي يختبر صدق برهنته وصحتها وجوهرية القضـــايا التـــي يتـــناولها(٤٠). ويحدد فيبر بإيجاز الوظائف الأساسية للتوجيه القيمي بأربعة أو خمسة:

١- أنـــه يساعد علي تحديد الموضوعات الأساسية أو الدراسة.اعلي أنه يساعدنا علي عزل أو فصل موضوع محدد عن الحقيقة الواقعية التي يختلط بها.

٢- أنه مجرد اختيار الموضوع، فأن التوجيه القيمي يساعدنا علي فصل مـــا هو أساسي عما هو ثانوي.أعني أنه يساعدنا علي تحديد المفرد التاريخي Historical Individuality ، أو تفريد المشكلة ( موضوع البحث) بحيث يحددها بالنظر إلي عديد من العناصر والتفاصيل التي لا حصر لها.

٣- أنــه فــي حالة التوجيه القيمي فأنه يمدنا بمعقولية تأسيس علاقة بين مختلف العناصر وبين المعاني التي نعينها لها.

٤- أن التوجيه القيمي يحدد لنا أيضاً طبيعة العلاقات السببية التي ينبغي تأسيسها، وإلي أي مدي يكون الإرجاع السببي.

٥- أنــه بالــنظر إلي كونه ليس حكماً قيمياً، ومن ثم فهو يتطلب تفكيراً واضــحاً ومفصــلاً لاختــبار صدق قضايانا، فأنه يعمل علي إلغاء الخبرة الشخصية والعاطفية من الممارسة العلمية(٤١). بيد أنه لتحقيق الموضوعية، فليس كافياً أن يمتلك الباحث توجيها قيمياً حتي تتحقق. وإنمــا علــيه أن يعلــن طبيعة هذا التوجيه القيمي الذي تبناه إطارا لتناول حقائق الواقع بالفحص والدراسة. وبمجرد توضيح نقطة البدء هــذه، فأن الموضوعية الحقه تصبح ممكنة. ومن ثم فبالنسبة لماكس فيــبر مثلماً هي بالنسبة لجونار ميردال فأننا نحقق الموضوعية عن طــريق إعــلان موقفــنا القيمي(٤٢)، ذلك يعني أن الذاتية في معناها الســيء ليســت إلا نتــيجة لأخفــاء حقــيقة أن لديــنا موقفنا قيمياً معيناً (٤٣). خلاصة القول فإن ماكس فيبر يتخذ موقفاً منهجياً يبدأ في إطــاره الباحــث ذاتياً إلا أنه ينتهي موضوعياً منفصلاً عن الحقيقة الــذي ارتبط في البداية. فاختبار المشكلة يتحقق بالنظر إلي مشاعر ذاتــية قد تدفع إليها أوضاع قيمية مرجعية تتعلق بذاتية الباحث. غير أنــه إذا كانــت حدســياته بشــأن الحقيقة موضع الدراسة، فأن هذه الحدسيات لا تكتسب مشروعيتها العلمية، وموضوعيتها إلا من خلال تعريضــها لإجــراءات المنهج العلمي كما تأكد في العلوم الطبيعة. ويعمق فيبر إيمانه بالموضوعية حينما يؤكد أن علي الباحث صياغة قضاياه بشأن الظواهر موضع الاهتمام علي النحو الذي يمكن غيره من الباحثين من اختبار صدقها وكفاءتها العلمية بسهولة ويسر.

## ثالثاً : السببية عند فيبر ، طبيعتها وأنماطها .

أوضحنا في الفقرة السابقة اتجاه المدخل الذاتي مباشرة نحو إدراك معني الواقعة موضع الدراسة باعتبارات أن الباحث القائم بإدراك الواقع مشارك فيها. ومن ثم فهو يدرك التفاعل من حيث دينامياته وعلاقته بواقعه من الدخل . وفي هذه الفقرة نعرض لطبيعة العلاقات السببية التي ينبغي علي الباحث إدراكها إذا هو نظر إلي الواقعة من خارجها، في إطار ذلك نجد أن موقف فيبر هذه القضية أقرب ما يكون إلي رفض الطابع الحتمي للسببية الذي تجلي بأقوى ما يكون عند كل من كارل ماركس وإميل دوركيم بل والخلفيات النظرية العامة لكل منهما.

وتشكل مناقشة العلاقات السببية مبحثاً هاماً من مباحث الأفكار المنهجية لماكس فيبر، حيث يؤكد أنه إذا قلنا أن الحتميات السببية Causal Determinations تعتبر أحد الإجراءات الهامة التي يتأكد بواسطتها الصدق للنتائج العلمية[٤٤]. فأن ذلك يطرح ضرورة التعرض لطبيعة العلاقات السببية، التي يؤكد فيبر أنها كمفهوم تعرضت لغموض كبير. فاحياناً كانت تعادل بالمشروعية Legality وأحياناً بالظروف Conditions الذي يمكن تصنيفها كأسباب[٤٥]. ثم نجده برغم رفضه للتحديدات السببية الأخري يحدد وجهة نظره بقوله إذا قلنا أن (أ) تسبب(ب) فأن ذلك يعني أن (ب) تتبع دائماً (أ) في عدد من الحالات التي تمت بلا خطأ، ومن ثم فأن ذلك قد يعتبر ضرورة، والمشكلة التي قد تبرز هنا تتعلق بطبيعة هذه الضرورة. والإجابة علي ذلك تتمثل في أن الضرورة تكمن في إمكانية استنباط القضية أن (ب) تتبع (أ) من قضية أكثر شمولاً هناك اتفاق قد توفر علي صدقها. ووفقاً لهذا التحليل يتضمن القول بالسببية الإشارة الضمنية إلي بعض القضايا العامة[٤٦].

وتستوجب محاولة إدراك معني السببية عند ماكس فيبر ضرورة أن يكون ذلك بالنظر إلي بعض الاعتبارات الأساسية.

١- أما الاعتبار الأول فيتعلق بكون العلاقات السببية – من وجهة نظر فيبر – ذات طبيعة جزئية وليست كلية أساساً. إذ يدرك فيبر العلاقة السببية علي أنها جزئية Partial واحتمالية، ونعني بالعلاقات الجزئية أن هناك تصوراً جزئياً وتحليلياً للسببية. وهو علي هذا النحو يرفض التفسير الذي طرحته المادية التاريخية . ومن ثم نجد أن فيبر ينكر بإصرار أن يعتبر أحد عناصر الحقيقة الواقعية أساسياً أو جوهرياً بالنظر إلي العناصر الأخري ومن ثم فهو الذي يحدد طبيعة الجوانب الأخري لهذه الحقيقة، بدون أن تشارك هي أو أي من عناصرها الأخري في صياغته والتأثير عليه. بذلك فأن السببية الجزئية تؤكد أن جزئية معينة من الحقيقة ذات صلة سببية ممكنة أو غير ممكنة، إيجابية أو سلبية بجزئية أخري من الحقيقة، فمثلاً ترتبط السلطة السياسية المطلقة بتدخل الدولة في أداء الاقتصاد، في إطار ذلك فأن النظام السياسي إذا كان مطلقاً فأنه من المحتمل أن تتدخل الدولة في أداء الاقتصاد. غير أن الباحث يمكن أن يؤسس توقعاً أخر في الاتجاه المضاد، أي أن يبدأ بحقيقة اقتصادية كالاقتصاد المخطط، أو الملكية الخاصة والجماعية، ثم يبحث إلي أي مدي يكون هذا العنصر الاقتصادي مؤدياً إلي أسلوب معين في التفكير أو في تنظيم السلطة السياسية أو يشكل عائقاً له. بذلك تكون العلاقات السببية جزئية، بذلك تكون العلاقات السببية جزئية، تتميز بالاحتمالية أكثر من تميزها بالضرورة الحتمية(٤٧).

ويؤكد فيبر أنه إذا حاولت تفسير واقعة تاريخية بالنظر إلي قانون عام فإنك تسيء فهم التاريخ، الذي يتكون من تتابع الأحداث المفردة. في إطار ذلك فأن الطريقة الوحيدة هي طريقة التفريد التي تنسب حادثة معينة لمجموعة خاصة من الأسباب التي يسميها فيبر مركب الأسباب

وبـــرغم أن كلا من مكونات هذا المركب Constellation له دورة في تأسيس الواقعة موضع الدراسة إلا أنهم لا يتساوون من حيث الاهمية في إحـــداث الواقعـــة من وجهة نظر المؤرخ. ومن ثم فهو ينتقي من بينها، وحينئذ تكون المشكلة التي تواجهنا تتمثل في كيف يمكن للباحث أن يقدر أهمية السبب(٤٨).

٢- وفـــي إطار الاعتبار الثاني يرفض فيبر الطابع الحتمي السببية. إذ نجده مـــنذ الـــبداية يـــرفض استخدام مصطلح الضروري Necessary ويستبدله بمصـــطلح كاف Adequate في هذا الصدد نجد أن فيبر مدفوع بالرغبة في فعـــل أي شـــيء فـــيما يتعلق بإغفال الطابع اللاعقاني للتطور. ومن ثم فهو يرفض التطور الطبيعي والحتمي للتاريخ، بينما هو يبقي علي صدق التفسير الســـببي(٤٩). إذن يرفض فيبر اعتقاد المؤرخين بأن الماضي كان محتماً بينما المســـتقبل لـــيس كذلك، فهو محرر من هذه الحقيقة، ذلك لأن النظر في هذه القضـــية يكشف عن تناقض أساسي، لأن ما هو ماض بالنسبة لي هو مستقبل بالنســـبة لآخريـــن. فإذا كان المستقبل ليس حتمياً علي هذا النحو، إذا فليس هناك بالتالي تفسير حتمي للتاريخ، إذ أنه من الناحية النظرية نجد أن إمكانية التفســـير الســـببي هي ذاتها المستقبل والماضي. إذا لماذا لا نعرف المستقبل بصـــورة مؤكـــدة؟ من المؤكد علي ما يذهب فيبر أنه من الممكن أن يواصل الباحث تحليله السببي للتاريخ بدون الوصول إلي تفسير سببي ملزم، ذلك لأن الواقعـــة المعقدة عادة ما تكون نتيجة لعدد كبير من الظروف في وقت واحد. ذلك أن البشر قد يصدرون قراراتهم الحادة في أي من لحظات التاريخ، مثلما ســـوف يصـــدر الآخرون قراراتهم أيضاً، غير أن هذه القرارات تكون عادة مـــتأثرة بالظـــروف وتتضمن قدراً من الحرية لأن هناك الآخرون في ذات المراكـــز الذيـــن قـــد تكون لهم قراراتهم المختلفة. حقيقة أنه في كل فترات

التاريخ تسود اتجاهات أساسية، غير أن هناك دائماً قدراً من الحرية للبشر، بسبب عدد من العوامل الأخري، التي لها فاعليتها في اتجاهات متباينة (٥٠).

بذلك فأن التحليل السببي للتاريخ يميل إلي التمييز بين الدور الذي يؤدي أو ينجز بتأثير الظروف العامة، وبين فاعلية شخص معين أو حادثة معينة عارضة، فللأفراد والأحداث العارضة دورهم في التاريخ، ولما كان اتجاه التطور الاجتماعي والإنساني غير محدد قبلاً، فأنه من المهم أن نمارس التحليل السببي للماضي من أجل تحديد المسئوليات التي يمارسها أفراد معينون، أو تلك المتعلقة بأهداف معينة(٥١). في إطار ذلك فأنه يؤكد إذا كان شيء محدداً قبلاً، فأن السياسة سوف تصبح عملاً لا معني له. وإلي المدي الذي نجهل فيه المستقبل وأن هناك قليلاً من البشر القادرين علي صياغته، فأن السياسة سوف تصبح جهداً إنسانياً نبيلاً(٥٢). بالإضافة إلي ذلك يؤكد فيبر أن السببية لها طابعها الزماني والمكاني النسبي، ومن ثم فهو يرفض التكرار السببي لفاعلية ذات العوامل تاريخياً وجغرافيا، ويلغي ضمنياً أية حتمية يمكن أن تتحكم في تشكيل مسار التفاعل الاجتماعي(٥٣).

١- أما الاعتبار الثالث فيتعلق بطبيعة سببية الواقعة بين الشمول والتحدد. إذ يؤكد أن السببية ينبغي إدراكها بأسلوبين، الأول باعتبار أنها سببية خاصة والثانية علي أنها سببية عامة. فمثلاً في محاولة تحديد أسباب الحرب العالمية الأولي، فأننا سوف نهتم بمعاهدة ساراجيفو Sarajevo ، أو الإنذار النهائي النمساوي إلخ، مثل هذه الأحداث لها قيمة الأسباب الخاصة، لكونها علاقات ساعدت علي إذكاء العدائيات. ومن ناحية أخري فأننا إذا تحدثنا عن الأسباب الاقتصادية للحرب، فأننا حينئذ نتناول الواقعة علي – الظاهرة موضوع الدراسة- مستوي آخر هو المستوي النمطي، أو المستوي العام، ثم يؤكد فيبر إنه لمن المؤسف أن المؤرخين وعلماء الاجتماع

قد خلطوا هذين الأسلوبين لفهم السببية[٥٤]. وواقع الأمر علي ما يذهب فيبر أن المنهج التعميمي لا يدرك العلاقات السببية بنفس أسلوب منهج التفريد .ذلك لأن السببية بمعناها الأصلي تحتوي عيل فكرتين أساسيتين، الأولي فكرة السلوك العقلاني، الذي يعبر عن حالة من الدينامية بين ظاهرتين متباينتين كيفيا، والثانية فكرة الاندراج تحت قاعدة عامة، إطار ذلك نجد أن فكرة التعميم تميل لإلغاء فكرة الفعل أو السلوك، وبالتالي فكرة السبب وتبقي فقط علي فكرة القانون بمعني المساواة الرياضية بين الظواهر موضع الاهتمام. علي عكس ذلك تحاول طريقة التفريد Individualizing إهمال فكرة القاعدة العامة أو القانون، وتبقي التركيز قائماً علي التفرد الكيفي للتطور بشكل عام أو التحديد الكيفي لأي من مجالاته. ولا يعني ذلك تفضيل فيبر لأي من نمطي السببية علي الأخر، أو أن السببية لا وجود لها في علوم التاريخ، أو أن تحليل السببية التاريخية أقل علمية ودقة من أي تحليل آخر[٥٥].

٢- ويتعلق الاعتبار الرابع والأخير بضرورة توفر خاصيتين أساسيتين للسبب الذي نري أنه يؤدي دوراً بارزاً في التفاعل المتعلق بالواقعة موضع الدراسة . أما الخاصية الأولي فتتصل بالإمكانية الموضوعية لهذا السبب. ونعني بذلك أن هناك دراسات متعددة تؤكد الفاعلية السببية لهذا العامل أو ذلك، بمعني أن تحديد الإمكانية الموضوعية مسألة تتعلق باعتراف النسق العلمي موضع الاهتمام بالنظر إلي اختبار صدقة وثبات دوره النسبي[٥٦]. أما تحديد الخاصية الثانية وهي الكفاية، فهي مسألة تتعلق بالتجربة الخيالية التي يجريها الباحث. حيث يؤكد فيبر أنه من أجل الوصول إلي العلاقات السببية الحقيقية، فأن علينا أن نؤسس علاقات سببية غير حقيقية فالمؤرخ،

مستندا إلي معرفته المتيسرة له، يتخيل التغير الممكن لمسار التطور إذا ما ألغي السبب المسلم به أساساً للواقعة. وبهذا الأسلوب يقيم دلالة وأهمية هذا السبب بالنسبة للتطور التاريخي الذي ندرك وقوعه(٥٧).

وفي أعقاب توضيح الاعتبارات الأساسية لإدراك العلاقات السببية من وجهة نظر ماكس فيبر، تؤكد أنه طرح نمطين أساسين من العلاقات السببية. فوفقا لما يذهب إليه هناك نمطان من السببية، وللتبسيط سوف نسمي إحداهما بالسببية التاريخية، أما الثانية فنسميها بالسببية الإجتماعية. وتحدد السببية التاريخية الظروف الفريدة التي أدت إلي ظهور واقعة معينة. أما السببية الاجتماعية فتهدف دائماً إلي تأسيس علاقة إطرادية بين ظاهرتين، بحيث لا تحتاج هذه العلاقة أن تتخذ شكل أن (أ) تستوجب حتميا الظاهرة (ب)، ولكنها ربما تتخذ شكل أن الظاهرة (أ) من المحتمل أن تؤدي إلي الظاهرة (ب) علي سبيل المثال القضية – الصحيحة أو الزائفة – التي تؤكد أن النظام السياسي المستبد يدعم تدخل في السيطرة علي الاقتصاد.

علي خلاف ذلك تتحدد قضية السببية التاريخية في كونها تهتم بتحديد دور المقدمات Antecedents المتعددة الكامنة وراء واقعة معينة. ويتضمن تحليل السببية التاريخية ضرورة اتباع الإجراءات التالية:

(أ) أنه ينبغي علي الباحث أن يؤسس الذات Identity أو الموضوع التاريخي الذي نرغب في تحديد أسبابه، قد يكون هذا الموضوع واقعة خاصة كالثورة البلشقية أو موضوعاً تاريخياً من النمط الشامل كالرأسمالية. وييسر تأسيس الموضوع التاريخي التحديد الدقيق لخصائص الواقعة التي نبحث عن أسبابها. فلكي نعرف أسباب الحرب العالمية الأولي فأن علينا أن نكشف أسباب اندلاع الحرب في أغسطس. ومن ثم فأسباب هذه الواقعة المعينة ينبغي أن لا تختلط مع أسباب الحرب التي ترددت في تاريخ أوربا، أو مع أسباب ظاهرة الحرب التي نواجهها في كل الحضارات. وبعبارة أخري،

تتمــثل القاعدة الأولي للمنهجية السببية في المجال التاريخي والاجتماعي في الــتحديد الدقيق لخصائص الموضوع التاريخي الذي يرغب الباحث في فهمه ودراسته.

(ب) ينبغــي تحلــيل الظاهــرة التاريخــية الخاصة والمعقدة إلي عناصرها الأساسية. ذلك لأن العلاقة السببية ليست علاقة مؤسسة بين كلية اللحظة (أ) وكلية اللحظة السابقة (أ)، لأن العلاقات السببية عادة ما تكون علاقات جزئية بين عناصر معينة تتعلق بالخاص التاريخي وبين بعض المقدمات أو الحقائق السابقة.

(ج) أنــه فــي حالة الاهتمام بتتابع سببي معين وقع مرة واحدة، فأنه لتحديد العلاقــة الســببية فــأن علــي الباحث أن يتبع ذلك بتحليل المفرد التاريخي ومقدماتــه بواســطة الــتجربة العقلــية التي تتكون من تخيل أن تقع أي من العناصر السابقة بشكل مخالف، أولاً تقع علي الإطلاق. فحينما نطبق التحليل الســببي علي حالة تاريخية مفردة، فأنه ينبغي أن يستمر عن طريق نوع من الاســتبدال التخيلــي Imaginary A Iteration لأي من العناصر، ومن ثم نحــاول تحديــد ماذا يمكن أن يحدث إذا كان هذا العنصر غائباً، أو إذا اتخذ شكلاً آخر.

(د) وأخــيراً فأنه ينبغي أن تقارن هذا التطور المتخيل الذي أسس افتراضياً عــن طريق تبديل Altering أي من المقدمات، بالتطور الحقيقي، وذلك قبل الوصول إلي نتيجة أن العنصر المستبدل افتراضاً يعتبر أحد الأسباب المتعلقة بالموضــوع التاريخــي موضع الدراسة. خلاصة القول أن السببية التاريخية تــتعلق بالمفــرد التاريخي، حيث تحاول استجلاء مقدماته عن طريق التبديل العشــوائي لهذه المقدمات، أو عن طريق الاستعانة بالتجربة العقلية في أحيان أخــري، أو الاســتعانة بالــنموذج المثالــي كوسيلة قياسية لتحديد الأسباب الجوهــرية. بحيث يتم ذلك دون الاستعانة بأية افتراضات عاملة علي النحو

الـــذي تعلـــم وفقاً له السببية الاجتماعية. فإذا اتفقنا علي أن السببية التاريخية تســـتغرق في المفرد التاريخي للبحث عن مقدماته علي حساب إغفال المفرد المماثل له أو القانون العام الذي يحكم اطراد التفاعل في هذه المفردات، فأننا نجد أن السببية الاجتماعية اهتمت أساساً بالبحث عن القانون أو التعميم العام الـــذي يحكم وقوع أو اطراد الظواهر الاجتماعية. وتتميز السببية الاجتماعية في أنها ذات طابع احتمالي أساساً، وتتنوع درجة الاحتمالية بتنوع الظروف. لذلـــك نجـــد أن التفكير السببي لماكس فيبر قد تمت صياغته بشكل احتمالي أساساً[٥٨]، وذلك يطرح تساؤلاً يتعلق بطبيعة العلاقات التي تربط بين ظواهر الـــتفاعل فـــي بناء المجتمع. أول هذه العلاقات تلك التي حاول فيبر رفضها، وهـــي السببية الأحادية التي تتميز بالحتمية والتي يتشكل في إطارها المجتمع بواســـطة أحد عناصره كالنسق الاقتصادي مثلاً [٥٩]. ورغم أن فيبر يرفض هـــذه الحتمـــية الأحاديـــة، كرفضه الموقف الماركسي الذي يعطي الأولوية للعوامـــل الاقتصـــادية في صياغة التفاعل الاجتماعي، فأننا نجده يدعم فكرة شـــديدة التـــناقض لمـــاركس حيـــنما يسقط في حتمية مضادة ويفسر الجناب الاقتصـــادي بالنظر إلي الدين[٦٠]. غير أن حقيقة الأمر تتمثل أنه لا يفترض ســـببية شـــاملة للدين، وإنما هو قد أراد من تأكيده علي الدين أن يوضح أن اتجاهـــات البشـــر الاقتصادية تحكمها أنساق معتقداتهم، مثلما يمكن أن تحكم معتقداتهم بواسطة النسق الاقتصادي. وهو بذلك يدعم موقفاً يرفض في إطاره الســـببية الحتمية للواقع الاقتصادي الاجتماعي في صياغة المعتقدات[٦١]. فإذا جـــاز لـــنا أن نسمي النمط السابق للسببية بالحتمية النسقية، فأن النمط الثاني للحتمية الذي يرفضه فيبر يمكن أن نسميه بالحتمية الكلية. حيث نجده يرفض بهـــذا الصـــدد التـــتابع المتكرر البنائية التي حدد تطورها كارل ماركس في تكـــررها التاريخـــي والجغرافي. وأيا كان الموقف الذي يقفه فيبر فأننا نجده يعـــبر عـــن موقف ذي ملامح خاصة، فهو يرفض تشكل الكلية البنائية بكلية

بنائـية أخـري. حيث يرفض أن تتحدد الملامح الكلية للمجتمع في المستقبل بواسـطة بعـض خصـائص المجتمع السابق عليه، فنظراً لأن السببية لديه تحليلية وتجزيئية فأنها لا تساعدنا عادة علي تحديد ملامح المجتمع الرأسمالي أو مـا بعـد الرأسـمالي في المستقبل. ولا يعني ذلك أن فيبر يعتقد أنه من المستحيل أن نحدد بعض ملامح المستقبل بل علي العكس نجد أنه مقتنع بأن عمليتـي الترشيد Rationalization والبيروقراطية Bureaucratixation قـد تسـتمر بقوة في المجتمعات الحديثة، غير أن هذه العملية لا تستطيع أن تحـدد بدقـة طبيعة النظام السياسي وأساليب الحياة والتفكير والاعتقاد التي سـوف تكـون لـدي البشر في المستقبل[٦٢]. وإذا كان فيبر قد رفض تطور الأشـكال البنائية علي النحو التراكمي الذي رسمه ماركس فأننا نجده يرفض فـي ذات الوقـت الموقف الذي اتخذه بورك، الذي أكد أن شكل المجتمع في المستقبل والحاضر شاركت في صنعه أجيال الماضي، ومن ثم فليس من حق أجـيال الحاضـر تغييره وفقاً لتصورها الخاص، فالحاضر بدأ في الماضي، والمسـتقبل سوف يتشكل وفقاً لعناصره الحاضرة[٦٣]. أما الحتمية الثالثة التي يرفضـها فيـبر فهـي الحتمية الزمانية، لأن الزمان ليس ثابتاً بالنسبة لكل الأشـكال. وإنمـا هو متغير نسبي بالنسبة لمعظم الأشكال. فالتطور الزماني يطرح علي الواقع دائماً متغيرات جديدة. فالواقعة المُعقدة عادة ما تكون نتاجاً لعـدد هائل من الظروف المتزامنة، ففي لحظات التاريخ الهامة في الماضي أصدر البشر قراراتهم مثلماً سوف يصدر بشر آخرون في المستقبل قراراتهم أيضـا، غـير أن هذه القرارات تتأثر بالظروف، وهو ما يعني تأسيس قدر أعلي من الحرية للبشر في إصدار قرارات متباينة في مختلف المراحل[٦٤].

يبقي بعد ذلك أن نوضح علاقة السببية التاريخية بالسببية الاجتماعية، فالسـببية التاريخية تحاول تحقيق الفهم المتعمق للمفرد التاريخي.بيد أن هذا الفهـم – سـواء كان من منطق إدراك المعني أو من منطق تحديد المقدمات

الســببية – لابد أن يتم بالنظر إلي مجموعة من المقولات العامة التي تشكل إطاراً شاملاً للفهم والانتقاد. هذا الإطار يتم الوصول إليه عن طريق ملاحظة وتحلــيل مفــردات تاريخية متعددة. وهنا نستطيع التأكيد علي أن ثمة تساوقاً متــبادلاً بين الاستغراق في المفرد التاريخي الذي يساعد علي تأسيس وإثراء التعميم السوسيولوجي الذي يساعد بدوره علي الفهم الأعمق للمفرد التاريخي الــذي أســهم فــي تجريده. تلك هي المعالم العامة للسببية عند ماكس فيبر، والعلاقــة بين السببية التاريخية والاجتماعية. وعلي ذلك فهناك علي ما يبدو لــنا، علاقــة وثــيقة بين تحليل الأحداث أو الوقائع من ناحية، وبين تأسيس القضــايا العلمــية من ناحية أخري، إذ يمثل كل من التاريخ وعلم الاجتماع مدخليــن لفهــم الحقيقة الواقعية أكثر من كونها علمين لا صلة بين أي منهما بالآخــر، ومن ثم يتطلب الفهم التاريخي استخدام القضايا العامة. ويمكن أن نوضــح هذه النقطة عن طريق البدء بالتحليلات والمقارنات التاريخية. ولعل هــذا التســاند بيــن التاريخ وعلم الاجتماع يتبدي بوضوح بأكثر في تصور مــاكس فيــبر عن ( النموذج المثالي (Ideal type الذي يعتبر بمعني ما تأليفاً لمذهبه المعرفي Epistemological doctrine [٦٥].

## رابعاً: النموذج المثالي ، بناؤه ووظائفه .

يمــثل النموذج المثالي، الذي يعتبر أكثر مفاهيم فيبر محورية النتيجة المنطقــية لــتآلف اتجاهات متعددة في التفكير الفيبري. فهو من ناحية يساعد علــي الــتفهم Comperhension حيــث يعتــبر كل نموذج مثالي تنظيماً لمجموعــة العلاقات الأساسية في كل واقعة تاريخية، أو سلسلة من الوقائع. وفضــلاً عن ذلك نجد أن النموذج المثالي علاقة بكل من المجتمع والعلم من خــلال عملية الترشيد. ومن ثم يعتبر تأسيس النموذج المثالي تعبيراً عن كل المحــاولات المتميزة لكل النظم العقلية، والتي كانت تهدف من وراء تأسيسه إلــي توضــيح موضــوع بحــثها عن طريق الكشف عن عقلانيته الداخلية

وتأسيسـها. بالإضـافة إلي ذلك يهتم النموذج المثالي. بالتصور الجزئي أو التحليلـي للسـببية، وهـو فـي ذلك يساعدنا علي فهم الوقائع أ العناصر التاريخية وأن كان هذا الفهم عادة ما يكون جزئياً بالنسبة لكل كامل[٦٦].ومن الناحية التاريخية تظهر أولي صياغات ماكس فيبر للنموذج المثالي من خلال تفكـيره كمـؤرخ اقتصادي، في الفترة التاريخية التي تعرض خلالها لتأثير ركرت Rickert [٦٧]. ففي إطار موافقته علي تمييز ركزت بين التاريخ من ناحـية والعلـوم الطبيعية والاجتماعية من ناحية أخري، فأن النماذج المثالية بـدت حينـئذ كأداة منهجية في يد المؤرخ أساساً. ومن ثم فلقد كان هدفه من مقاله( الموضوعية في العلوم الاجتماعية ) أن يضف منطق استخدام النماذج المثالـية وأن يوضـح الاخـتلافات والاتفاقات بينها وبين القانون في العلوم الطبيعـية[٦٨]. هـذا بالإضـافة إلي أن فيبر قد تعرف علي استخدام النماذج المثالية عند مفكرين كان له معهما شأن كبير. أولهما جورج زيمل الذي أهتم ببـناء التأسيسـات الصـورية لعديـد من الأشكال البنائية كالمجتمع المحلي والمجـتمع العـام. والثاني من خلال كارل ماركس إذ يؤكد فيبر أننا سوف نشـير هنا بالتحديد إلي القوانين الماركسية وتأسيس الأشكال البنائية علي أنها نماذج مثالية[٦٩]. وتكمن الصعوبة في نظرية ماكس فيبر عن النماذج المثالية فـي حقيقة أنه يمكن التمييز في إطارها بين عنصرين أساسيين، بحيث يتمثل العنصـر الأول فـي وجـود مـيل عام للمنذجة المثالية Ideal-typical tendency لكل المفاهيم المستخدمة في الثقافة والعلوم. أما الثاني فيتمثل في الأنواع المحددة للنماذج المثالية التي ميز بينها فيبر ضمنياً علي الأقل[٧٠].

وبشـكل عـام فأنـنا نلاحظ في تنظير فيبر ميلا عاماً نحو صياغة الـنماذج المثالـية، فمـا هـو النموذج المثالي؟ أجابة علي ذلك يطرح فيبر تعـريفات عديـدة تتسـم أحـياناً بقدر من الغموض. فهو يؤكد أحياناً ( أن النموذج المثالي يتأسس عن طريق الإبراز الجزئي لوجهة نظر أو اكثر يمكن

ترتيبها بالنظر إلي وجهات النظر الجزئية الأخري في إطار تأسيس تحليلي موحد[٧١]. وفي موضع آخر نجده يذهب إلي أن النموذج المثالي عبارة عن وصف منطقي متسق من وجهة نظر محددة. بحيث يؤدي ذلك إلي توضيح علاقات الوسائل بغايات الفعل حتي يساعد ذلك الباحث علي تجميع الأفكار أو الارتباطات والتفسيرات المتناثرة في إطار عام قابل للفهم[٧٢]. ولتجنب الاستغراق في تعريفات تتميز إلي حد كبير بالغموض فأننا سوف نحاول التعرف علي النموذج المثالي من خلال تحديد عناصره الأساسية كما يلي :

١- أنه نظرة جانبية أو جزئية تتم بالنظر إلي الإطار النظري للباحث، وذلك من شأنه أن يترك هامساً لتأثير التوجيه القيمي للباحث في تحديد العناصر الأساسية للنموذج.

٢- أنه يعتبر عن نظرية أحادية يجرد الباحث من خلالها – انتقائياً – عناصر الرئيسية من الظواهر الواقعية.

٣- أن هذه العناصر التي يري الباحث أنها تشكل العناصر المحورية للواقعة أو الظاهرة – موضع الدراسة – يتم تأسيسها – بالإضافة إلي بناء العلاقات المنطقية بينهما – في إطار بناء نظري له اتساقه المنطقي وقدرته علي المساعدة في الفهم والتوضيح[٧٣]. وبالنظر إلي ذلك فأن التحديد الإيجابي للنموذج المثالي كما يراه ماكس فيبر يتبدي في كونه بناء من العناصر التي جردت عن الواقع والتي وضعت مع بعضها البعض، لكي تشكل نموذجاً تصورياً موحداً وهو ما يتضمن المبالغة لبعض جوانب الحقيقة. وفي محاولة لتحديد هوية النموذج المثالي بشكل أكثر وضوحاً يؤكد ماكس فيبر أن النموذج المثالي ليس الصياغات النظرية التالية:

(أ) فهو ليس فرضاً نظرياً ، بمعني أنه ليس قضية تتعلق بالحقيقة الواقعية، ومن ثم يمكن اختبار صدقها الواقعي، فالنموذج المثالي عادة ما يتميز بالتجريد.

(ب)أنــــه لــيس وصـــفا للواقع. إذا كنا نعني بهذا الواقع موضوعا له وجوده الواقعـــي المتصل بهدف الوصف،في إطار ذلك أيضا يتميز النموذج المثالي بالتجريد.

(ج)أنه ليس متوسطاً، بالمعني الذي يمكن أن نقول في إطاره أن متوسط وزن الرجل يصل إلي ١٥٠ رطلاً. فالرجل المتوسط ليس نموذجاً مثالياً.

(د) أنــــه ليس صياغة للسمات الواقعية المشتركة بين فئات من الموضوعات الواقعـــية، كان نقول أن وجود اللحي لدي الرجال يميزهم عن النساء[٧٤]. أما كـــيف يمكـــن تأســيس النموذج المثالي، فأننا نجد أن فيبر يؤكد أنه ليس إلا اســـتراتيجية للتفســـير الامبيريقـــي، ومن ثم فهو يتشكل بالنظر إلي المعرفة العلمـــية المتيســـرة للباحـــث وقـــت إجرائه للدراسة، وبالنظر إلي المواقف الامبيريقـــية التـــي يحاول إدراكها. وبمجرد أن يساعد النموذج المثالي علي تحقـــيق الفهم، فأنه يفقد وظيفته، ويظل الانتفاع به علي مستوي كونه وظيفة تـــربوية فقط. وهناك معياران أساسيان ينبغي مراعاتهما عند صياغة النموذج المثالـــي، الأول هو إمكانية الموضوعية Objective Possibility ، والثاني هو السببية الكافية Adquate causstion ، إذ يضمن الوحدة أو العنصر في بـــناء الـــنموذج المثالـــي إذا لـــم تتناقض والمعرفة العلمية الموجودة بشأنه والمتيســـرة للباحـــث فعـــلاً، بذلـــك تتوفر لعنصر النموذج خاصية الإمكانية الموضـــوعية، أي تصـــبح ممكنة من الناحية الموضوعية. ويمكن أن تتدرج الإمكانية أو الدلالة الموضوعية لأي عنصر أو وحدة من صفر إلي ١٠٠.أما الكفاية السببية فنفني بها أن يكون العنصر الذي يدخل في بناء النموذج المثالي لـــه دلالـــته الســـببية بالنسبة للنتيجة – أي بالنسبة للسلوك البشري موضع الاهتمام والدراسة. فإذا تمت صياغة النموذج المثالي، فإنه ينبغي أن يساعدنا علـــي تحديد المواقف المختلفة بدرجة أكثر مما يمكن إنجازه بدونه، فتأسيسه يســـاعد علي مقارنة التنوعات الواقعية، وليس المقارنة بين النماذج المثالية .

وعلي هذا المستوي فإذا ساعدنا النموذج المثالي علي تحقيق مستوي من الفهم فإنه يكون قد أدي وظيفته، أما إذا طلبنا فهما أكبر من ذلك فأن ذلك يعني افتراض صياغة نموذج مثالي آخر(٧٥). ويذهب ماكس فيبر إلي إمكانية أن ينجز النموذج المثالي الوظائف الأساسية التالية:

(أ) أنه عبارة عن وسيلة منهجية موجهة نحو توضيح معني الموضوع قيد البحث. وبعبارة أخري فهو عبارة عن إجراء منهجي خالص يطوره الباحث إرادياً وفقاً لحاجات البحث، ويمكن أن يتخلي عنه إذا لم يؤد وظيفته أو يشبع توقعاته. وبذلك تتحدد قيمة النماذج المثالية بالنظر إلي فعاليتها في عملية البحث. فإذا لم تكن كذلك فأن للباحث حرية تأسيس نماذج مثالية أخري أكثر فعالية . بذلك فالنماذج المثالية في ذاتها ليست صادقة أو زائفة،ولكنها مثل أي أداة منهجية أخري مفيدة أو غير مفيدة(٧٦).

(ب) يكمن الدور الحقيقي للنماذج المثالية في كونها تعتبر وسيلة توضيحية تساعد علي إصدار الأحكام التي تتضمن التنسيب السببي، وذلك يعني أنها لا تؤدي دورها كفروض، ولكنها تساعدنا علي تأسيس الفروض. بالإضافة إلي ذلك فأن استخدام النموذج المثالي من شأنه أن يساعدنا علي تحديد ما هو فريد وأساسي بالنسبة للأحداث أو المواقف، عن طريق التوضيح في كل حالة لمدي ابتعاد الواقع عن الصيانة التحليلية المجردة وغير الواقعية، وبذلك يؤدي النموذج المثالي دوره كوسيلة قياسه(٧٧).

(ج) وتتحقق الوظيفة الثالثة حينما نتمكن من صياغة عدد من النماذج المثالية المختبرة كفاءتها وصدقها الإمبيريقي، ومن ثم نجدها تشكل في مجموعها إطاراً نظرياً شاملاً له قدرته النسبية علي فهم الواقع المتفاعل وإدراك علاقات السببية. وبذلك تتحول النماذج المثالية لأية وقائع أخري إلي كتل بناء لتأسيس الصرح النظري الشامل الذي هدفه إليه ماكس فيبر(٧٨).

(د) أما الوظيفة الرابعة للنموذج المثالي فتتمثل في إمكانية استخدامه كوسيلة للمقارنة الموضوعية والعلمية. فالمقارنات التي أجراها الرواد الذين سبقوا ماكس فيبر قد وجهت بإطار نظري لكنها افتقدت المحكات التي يمكن علي أساسها أن تتم المقارنة. وهنا نستطيع التأكيد علي أن فيبر قد طور المنهج المقارن حيث اعتبر النموذج أساس للمقارنة يمكن بناء عليه قياس أو تحديد أي انحراف للواقع الاجتماعي موضع المقارنة[٧٩]. ويري ماكس فيبر أن هناك عدة أنواع للنموذج المثالي نذكرها فيما يلي:

(١) النماذج المثالية المتعلقة بالمفردات التاريخية Ideal types of historical Particulars كالنماذج المثالية للرأسمالية أو المدينة الأوربية الغربية. ويظل النموذج المثالي للمفرد التاريخي مجرد صياغة جزئية ما دام عالم الاجتماع ينتقي عدداً معيناً من سمات الكل التاريخي لكي يشكل منها ذاتية واضحة.

(٢)ويتكون الشكل الثاني للنموذج المثالي من مجموعة العناصر المجردة عن الواقع التاريخي، وهي العناصر التي يمكن أن توجد أو تتردد في عدد كبير من الحالات. وفي حالة ترابطها، فأنها تساعدنا علي فهم الكليات التاريخية الحقيقية.

يتضح اختلاف الشكلين – الأول والثاني – عدد بعضهما البعض، إذا اعتبرنا الرأسمالية مثالاً علي الأول بينما البيروقراطية مثالاً علي الثاني. فنحن في الحالة الأولي نشخص ذاتا تاريخية ذات وجود حقيقي لا مثيل له، بينما نحن في الثانية نشير إلي نظام لا يغطي البناء بكامله أو من الممكن أن يجد الباحث أمثله كثيرة له في لحظات تاريخية مختلفة ويمكن أن يتأسس هذا الشكل الثاني بالنظر إلي ثلاثة مستويات:

( أ ) التجريد المرتبط بمفاهيم مثل البيروقراطية والإقطاع.
(ب)المستوي الثاني يتعلق بالأمثلة أو الأنواع كالنماذج المثالية للسيطرة domination العقلانية ، التقليدية، الكارزمية.
(ج) أما المستوي الثالث فهو أعلاها تجريداً، حيث يتعلق بنماذج الفعل، كالفعل العقلاني الفعل العقلاني بالنظر إلي القيم، ثم الفعل التقليدي ، والفعل العاطفي.
(٣) أما الشكل الثالث للنموذج المثالي فيتعلق بإعادة التأسيس الرشيدة لنوع معين من السلوك، علي سبيل المثال تأسيس نماذج مثالية لمختلف قضايا النظرية الاقتصادية، والتي تتعلق بالأساليب التي يتصرف البشر وفقاً لها في مواجهة موضوعات اقتصادية خالصة. حيث ترك النظرية الاقتصادية السلوك الاقتصادي علي أنه سلوك يتسق مع جوهرة، هذا الجوهر الذي يمكن تحديده بشكل دقيق[٨٠].

وبرغم فعالية النماذج المثالية كوسائل منهجية تعمق من عملية المنهج المقارن، وتلغي إلي حد كبير التحيزات القيمية التي قد يسقط في أسارها الباحث فأنه قد وجهت إليها عدة انتقادات يمكن أجمالها فيما يلي:
(أ) حيث يذهب النقد الأولي أنه نظراً لأن الباحث هو الذي يؤسس النماذج المثالية. وما دامت النماذج المثالية ليست إلا تأسيسات ابتكارية فأن الباحث قد يتجه إلي تبني العناصر المؤسسة لنموذجه المثالي من خلال وجهة نظر متحيزة . وذلك يعني أن ما قمنا بتأسيسه ما هو إلا مقياس خاص وذاتي، ومن ثم فنتاج القياس سوف يكون خالصاً لا ينتمي إلي موضوعية العلم في شيء يضاف إلي ذلك أننا نتحيز حينما نفترض مقارنة المفردات الواقعية بالنماذج المثالية التي أسسناها خيالياً لكي نحدد قدر الانحراف عن النموذج المثالي. وذلك علي ما يذهب البعض ليس سوي رياضة عقلية، لأن مفردات

الواقعة ينبغي أن تكون منحرفة عن نماذجها المثالية، ما دام هذا الانحراف قد شارك فيه الباحث ذاته عند تجريده للنموذج المثالي[٨١].

(ب)أنه إذا قلنا أن النموذج المثالي يتشكل من إبراز ما يعتبره الباحث الخصائص أو الميول الأساسية للظاهرة موضع الدراسة، فأن هناك أخطاء يمكن أن تصاحب هذه العملية، نذكر منها:

(١) أن الباحث قد يقع في خطأ اعتبار التأسيس النظري الذي تولي صياغته مقياساً أو إطاراً ينبغي علي المعطيات الواقعية أن تتكيف معه أو وفقاً له.

(٢) أن الباحث قد يخلط بين التأسيس النظري الذي جرد عن الحقيقة من ناحية وبين الحقيقة الواقعية من ناحية أخري.

(٣) أن الباحث هو الذي يفترض العناصر التي تشكل القوي الحقيقية للنموذج.

ويؤكد إرفنج زايتلن أنه إذا أمكن تجنب هذه المخاطر فان النموذج المثالي يمكن أن يصبح أداة فعالة نستطيع بواسطتها مواجهة الواقع وإدراكه[٨٢].

(ج) أما الانتقاد الثالث فيذهب إلي أنه ما دام النموذج المثالي ليس سوي تحديد للعناصر الأساسية للظاهرة موضع الدراسة، فأن هذا التحديد أو التجريد غالباً ما يتم بالنظر إلي الحقيقة وهي في حالتها الساكنة. ومن ثم فأن ذلك يجعل النموذج المثالي غير قادر علي استيعاب الجوانب الدينامية للظاهرة. بالإضافة إلي ذلك فأن الواقع متغير يطرح دائماً متغيرات جديدة. ومن ثم فأننا نجد أن النموذج المثالي كإطار نظري مجرد يتخلف عن الواقع المتطور بمجرد تأسيسه. ذلك يجعل الباحث في حالة دائمة من التأسيس التجريدي الذي يتجاوزه الواقع دائماً بما يجعل المسألة عبئاً نظرياً علي الباحث، بحيث تتضاءل قيمة الناتج كثير أمام تكاليفه.

(ـ) ويذهب الانتقاد الرابع إلي أن النموذج المثالي يؤدي عادة إلي عديد من التحيزات والأخطاء. في إطار ذلك يذهب افرايم فيشوف Ephraim Fishoff إلي أنه بمجرد تأسيس ماكس فيبر للنموذج المثالي للنظام الرأسمالي كما فعل، مؤكد علي عقلانيته، وجدته، وطبيعته التقشفية، فأنه لم يواجه صعوبة كبيرة في اكتشاف عناصر الالتقاء مع التأسيس النظري للأخلاق البروتستنتية التي تميل في ذات الاتجاه(٨٣). بالإضافة إلي ذلك، فقد تتضمن منهج فيبر في تأسيس النماذج منطقاً انتقائياً، فيما يتعلق بالمكونات الثقافية المتباينة من حيث أوزانها النسبية في تشكيل الواقع موضع الاهتمام(٨٤). بيد أن الانتقادات السابقة تتضمن قدراً عالياً من المبالغة التي تجعلها تتجاوز الحقيقة إلي حد كبير. ففيما يتعلق بالانتقاد الأول والذي يدور معظمه حول التحيز الذي قد يصيب النموذج المثالي من جراء تدخل الباحث في صياغته مما يفقده القدرة علي تناول الحقيقة الواقعية بالدراسة والفهم. نري أن النموذج المثالي لظاهرة معينة يركز عادة علي عناصرها الأكثر أساسية كما أكدت ذلك دراسات عقلانية وعلمية كثيرة. وثانياً أن النموذج المثالي يستخدم لدراسة كل الظواهر التي قد تتجانس، كلياً أو جزئياً – مع الظاهرة التي جرد عنها، وان لم تشارك هذه الظواهر في تأسيسه، ومن ثم يبتعد النموذج المثالي كبيراً عن أن يكون مجرد رياضة عقلية. هذا بالإضافة إلي أن إشراك أي مقولة في بناء النموذج المثالي لابد وأن يتم وفقاً المعيارين هما الكفاءة السببية ثم الإمكانية السببية ثم الإمكانية الموضوعية، وهي معايير تؤكد صفة الخارجية للنموذج المثالي بالنسبة للباحث والظاهرة موضع الدراسة، مما يحقق انفصال الباحث عن الظاهرة موضع الدراسة. أما فيما يتعلق بالانتقاد الثاني الذي يؤكد علي إمكانية أن يخلط الباحث بين التأسيس النظري من ناحية وبين الحقيقة الواقعية من ناحية أخري، أو فرض هذا النموذج علي الحقيقة الواقعية من ناحية ثالثة.فأن ذلك لا يعتبر عيباً في النموذج المثالي كتأسيس نظري، وإنما يرجع

إلي عدم كفاءة الباحث و سوء استخدامه له. وبالنسبة للانتقاد الثالث نري أنه إذا كان يمكن أن نجرد النموذج المثالي بالنظر إلي الظواهر الساكنة، فأننا يمكننا أيضا تجريده عن الظواهر الديناميية، الشاملة أو الجزئية، وأن استخدام كل من ماركس وماكس فيبر للنموذج المثالي تم بالنظر إلي الظواهر الثابتة والديناميية علي السواء. أما الانتقاد الرابع فنحن لا نتفق فيه مع افرايم فيشوف، حيث قام فيبر بتحديد قدر كبير من المكونات السببية للنظام الرأسمالي مقارنا إياها مع النظم الرأسمالية التي ظهرت في إطار ديانات وحضارات أخري، كاليهودية، والصينية والهندية، محدداً بناء علي استخدامه للنموذج المثالي الانحرافات الواقعية لمختلف الرأسمالية عن النموذج المثالي، وبالتالي أمكنه تحديد العوامل التي قد أدت دوراً في دعم ظهور الرأسمالية واستمرارها في الحضارة الغربية، وأيضاً تلك التي أعاقت ظهورها واستمراريتها في الحضارات الأخري.

## المراجع


١- **Irving Zeitlin:** Op, Cit. p, ١٥٦

٢- **M. Weber:** Theory of Social and economic Oerganization p, ١١٨

٣- **R. Aron:** Op, Cit. p, ١٨٨

٤- **Ibid.** p, ١٨٣

٥- **Ibid.** pp, ١٨٣ – ١٨٤

٦- **Ibid.** p, ١٨٣

٧- **T. Parsons**: The Structure of Social Action. P, ٦٠٠

٨- **Giddens, A:** Politics and Sociology in the thought of Max Weber. London. ١٩٧٢. p, ٩٤

٩- **T. porsons:** The Structure of Social Action. P, ٦٤١

١٠- **J. Freund;** Op, Cit. pp. ٥٦ - ٥٧

١١- **A. Giddens:** Politics and Sociology in the thought of M. Weber. ٦٢

١٢- **T. Parsons:** The Structure of Social Action. P, ٥٩٨.

١٣- **Don Martindal:** Op, Cit. p, ٣٨٠

١٤- **J. Freund:** Op, Cit. p, ٤١

١٥- **Ibid.** p, ٤١.

١٦- **Don Martindale.** Op. Cit. p, ٣٧٨

١٧- **Ibid.** p, ٣٨٨

١٨- **T. Parsons:** The Structure of Social Action. P, ٥٨١

١٩- **Ibid. p, ٥٨٦, and See M. Weber:** The Methodology of the Social Sciences, p. ٧٦, and See also R. Aron: Op, Cit. p, ١٨٦.

٢٠- **J. Freund:** Op, Cit. p, ٤٣

٢١- **M. Weber:** The Methodology of the Social sciences, p, ١٧٤

٢٢- **T. Parsons:** The Structure of Social Action. P, ٥٨١

٢٣- **Ibid.** p,٥٨٣

٢٤- **M. Weber:** The Methdology of the Social Sciences. Pp, ٨١ - ٨٢

٢٥- **Ibid.** p, ٧٢

٢٦- **T. Parsons:** The Structure of Social Action. P, ٢٨٢

٢٧- **Don Martindale:** Op, Cit. P, ٣٧٥

٢٨- **T. Parsons:** The Structure of Social Action. P, ٥٨٧

٢٩- **Ibid.** p, ٥٨٧

٣٠- **Ibid.** pp. ٥٨٨-٥٨٩

٣١- **J. Freund:** Op. Cit. p, ٤٠

٣٢- **Ibid.** p, ٤١

٣٣- **R. Aron:** Op, Cit. p, ١٩٠

٣٤- **Bendix, Reinhard:** Max Weber. An Intellectual Portrait. London. ١٩٦٦. p, ٥٦.

٣٥- **T. Parsons:** The Structure of Social Action. P, ٢٨٣

٣٦- **J. Freund:** Op, Cit. p, ٤٢

٣٧- **Ibid.** p, ٥٢

٣٨- **M. Weber;** The Methodology of the Social Sciences. P, ٨٤.

٣٩- **Ibid.** p, ٨٥.

٤٠- **Ibid.** p, ٨٧

٤١- **Juliem Frund:** Op, Cit. pp, ٥٣ – ٥٦

٤٢- **Myrdal, G:** Value in Social theory. Routledge & Kedgan Paul. ١٩٥٨. pp, ١١٩ – ١٦٥.

٤٣- **J. Rex:** Op, Cit. p, ١٩

٤٤- **R. Aron:** Op, Cit. p, ١٩٣

٤٥- **J. Freund:** Op, Cit. p, ٤٨

٤٦- **J. Rex** : Op, Cit. p, ٢٠

٤٧- **R. Aron:** Op, Cit. p, ٢٠٠

٤٨- **J. Freund:** Op, Cit. p, ٧١

٤٩- **Ibid.** p, ٧٦

٥٠- **Luckman. T.:** The Social Construction or reality- Allen lane, ١٩٦٧. p, ٤٧.

٥١- **R. Aron:** Op, Cit. p, ١٩٥

٥٢- **Ibid.** p, ١٩٦

٥٣- **T. Luckman:** Op, Cit. p, ٦٣

٥٤- **Max Weber:** The Methodology of the Social Sciences. P, ٧٦.

٥٥- **J. Freund:** Op, Cit. pp, ٤٩ – ٥٠

٥٦- **T. Parsons:** The Structure of Social Action. P, ٥٨٢

٥٧- **J. Freund.** Op, Cit. p, ٧٣

٥٨- **Ibid.** p, ١٩٩

٥٩- **Ibid.** p, ٢٠٠

٦٠- **Ibid.** p, ٢١٨

٦١- **Ibid.** p, ٢١٩

٦٢- **Ibid.** p, ٢٠٠

٦٣- **Irving Zeitlin:** Op, Cit. p. ١١٨

٦٤- **Roymond Aron:** Op, Cit. p, ١٩٥

٦٥- **Ibid.** p, ٢٠١

٦٦- **R. Aron:** Op, Cit. p, ٢٠٧

٦٧- **J. Rex:** Op, Cit. p, ١٨

٦٨- **M. Weber:** The Methodology of the Social Sciences. P, ١١٥

٦٩- **R. Aron:** Op, Cit. pp, ٢٠٢ – ٢٠٣

٧٠- **M. Weber:** The Methodology of the Social Sciences. P, ١٠٣

٧١- **J. Freund.** Op, Cit. p, ٦٠

٧٢- **Sahay, Arun;** The imprtance of Weber's Methodology. In A. Sahay. M. Weber and Modern Sociology pp, ٧٢ – ٧٣.

٧٣- **T. Luckman.** Op, Cit. p. ٩٢.

## الفصل الثالث

# النظرية الاجتماعية لماكس فيبر
# رؤيتها للنظام الرأسمالي وتفاعلاته

### تمهيد

اعتقد ماكس فيبر في التفرد الواضح للنظام الرأسمالي الحديث ، وهو النظام الذي يعتبر نتاجا طبيعيا لرافدين أساسين، الأول التطور العلمي والتطور التكنولوجي المترتب عليه ، بينما يتمثل الرافد الثاني في القيم المسيحية النقية في أصولها الصحيحة حيث يكشف تأمل نظرية ماكس فيبر عن فاعلية بارزة لكل من هذين الرافدين .

فمن ناحية شكلت القيم البروتستينية وبخاصة الكالفنية، الأساس المعياري لسلوكيات مجموعة من البشر في الحياة، استطاعوا من خلال التمسك بهذه العناصر المعيارية من تأسيس النظام الرأسمالي الحديث الذي يستند إلى معادلة موضوعية ومتوازنة تؤكد انه كلما تقشف الرأسماليون ، وكلما أنفقوا وقتهم في العمل لتحقيق مجد الله، وكلما عملت الطبقة العاملة وفقا لمستويات دنيا من الأجور ، كلما حدث تراكم مقابل علي صعيد الثروة العامة للمجتمع بذلك يصبح التعطل ، والتبذير والإسراف ، وإضاعة الوقت انحرافا عن القيم المسيحية في أصولها النقية والطاهرة .

ومن ناحية ثانية فقد شكل التطور العلمي أساس تطوير أساس تطوير التكنولوجيا اللازمة لنمو النظام الرأسمالي فقد تطورت البيروقراطية كتكنولوجيا جديدة في الإدارة قادرة علي فرض نوع من الموضوعية والحيادية علي عملية الإنتاج ، إضافة إلى التطور الذي تحق التكنولوجيا المادية للإنتاج والذي دفعت إلى تطوير النظام الرأسمالي إلى أفاق أكثر فاعلية وقدرة .

والحق أن ماكس فيبر لم يكن مفكرا يحاول أن يقدم تفسيرا بديلا ــ للتفسير الماركسي ــ فيما يتعلق بنشأة النظام الرأسمالي، ولكنه كان مفكرا موسوعيا كماركس ــ عالج كثير من الجوانب الاقتصادية والطبقية للمجتمع الرأسمالي بمنطق قد يخالف الماركسي ، إلا أنه انطلق لتحليل جوانب أخري في بناء المجتمع كالبناء السياسي والسلطة ونماذج السلطة والنظام الديني حيث وضع نظرية في نشأة الأديان ، وفي الظروف التي تتيح الفرصة لنجاح القدرة الكارزمية للأنبياء ، وبذلك قدم نظرية بارزة عن النبوة ونجاح الدين الجديد في إطار علم الاجتماع الديني .ذلك يعني أن تحليل ماكس فيبر للنظام الرأسمالي كان شاملا تناول مختلف تناول مختلف الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لهذا النظام بقدرة تحليلة لهذا النظام بقدرة تحليلة عبقرية تشهد علي قدرة تنظيرية ومنهجية عالية المستوي ، نعرض لبعض قضاياها في الصفحات التالية .

## أولا :نشاة النظام الرأسمالي *نشأته وطبيعته.

منذ البداية نجد أن فيبرــ اتفاقا مع ماركس ووارنر زومارت Sombart يؤكد علي تفرد النظام الاقتصادي الحديث ــ في التاريخ الحديث حيث لم يوجد ما يشبه هذا النظام في أي مكان أو أي زمان سابق (١). وكما عرفه كثيرا، نجد أن فيبر يعتبر الرأسمالية ظاهرة حديثة أو هي نسق معقد للغاية يضم مجموعة من النظم، ذات طبيعة عقلانية، ثم هي نتاج لعديد من التطورات التي وقعت في إطار الحضارة الغربية وبهذا المعني يتأكد التفرد من ناحية لأنه لم يسبق وجوده في التاريخ الغربي ومن ناحية أخري أن هذا النظام لم يظهر تلقائيا في إطار حضارات الشرق . بذلك فإن النظام الرأسمالي ليس قديما في التاريخ ، ومن ثم فليس علينا أن نخلط بينه وبين أشكال النشاط الرأسمالي العديدة ( كالرأسمالية التجارية، والسياسية التي تتحقق عن طريق المغامرة )، التي عرفت في الفترات السابقة من التاريخ

الغربي، وحضارات الشرق بالمثل ولا يمكن اعتبار ظهور النظام الاجتماعي الاقتصادي الراسمالي الحديث نتيجة تلقائية للعقلانية المتزايدة لكل جوانب الحياة في الغرب اذا كان علي هذا النظام أن يشق طريقه من اجل التفوق ضد ( عالم كامن من القوي المعادية ) ومع ذلك فلم يمثل انتصاره علي قوي القرون الوسطي ( حتمية تاريخية ) أو ( ضرورة تاريخية ) [٢] .وإذا كانت المشكلة الهوبزية عند كل ما توماس هوبروجان جاك روسو هي ، كيف نشأ النظام الاجتماعي بشكل عام ، فإن المشكلة التي طرحت نفسها في هذه الفترة اي الفترة التي عاصرت قيام الثورة السياسية في فرنسا والصناعية في إنجلترا وهي ذات الفترة التي عاصرت ظهور النظريات الكلاسيكية في علم الاجتماع تعلقت بكيفية نشأة نوع معين من النظام وهو النظام الرأسمالي الذي تأسس علي التكنولوجيا العقلانية للثورة الصناعية ولقد تباينت التصورات المنافسة لذلك بين ثلاثة روادهم كارل ماركس وإميل دوركيم وماكس فيبر .
ذلك يعني أن القضية الأساسية بالنسبة لماكس فيبر تتعلق بكيفية نشأة النظام الرأسمالي وما هو أسلوب انضباط التفاعل في إطار هذا النظام ثم ما هي الطبيعية الأخلاقية التي يخلعها ماكس فيبر ويشير البحث في نشأة النظام الرأسمالي إلى وقوع عوامله في إطار ثلاثة أنساق أساسية، ثم النسق الاجتماعي، ثم نسق الشخصية. حيث انبثقت العوامل التي أسهمت في مجملها في نشأة النظام الرأسمالي من داخل هذه الأنساق الأساسية الثلاثة .
وفي إطار نسق الدين والقيم يري ماكس فيبر في البروتستنتية وخاصة أفكارها الكالفنية ، ليست اللوثرية العامل الأساسي المولد للنظام الرأسمالي ذلك لأن البروتستنتية اللوثرية قد عجزت عن ذلك لعاملين، الأول أنها فشلت في كسر التحديات التي فرضتها النزعة التقليدية التي سادت هذه الفترة حيث ربط الخلاص في مذهب لوثر بالإيمان وحده. مما أبعده كثيرا عن الخلاص،

المرتبط بالنجاح في الآعمال، بل أنه ارتبط تصور للعناية Salvation الآلهية التي تفرض موافقة قوية علي النظام التقليدي القائم في هذا العالم ومن ثم تخلق ميلا للبقاء في الوضع الذي هو عليه، ومن ناحية الايمان برز ميل الي انجاز الواجبات التقليدية المرتبطة بهذا الوضع .ومن هنا فلم يبتعد المذهب اللوثري كثيرا عن الكاثوليكية في الاتجاه العام نحو المناشط الدنيوية الاكثر ملاءمة للبيروقراطية الرأسمالية مع أن اللوثرية ألغت المكانة المتميزة دينيا للراهب Monk ومن ثم جعلت الموافقة الدينية علي كل المهن الدنيوية مشروعة علي أساس مساواتها ببعضها البعض حيث اعتبر ذلك أساسا مشتركا بين كل الاتجاهات البروتستنتية، غير أن الميل التقليدي للأخلاق اللوثرية منع تطورها لما هو أبعد في اتجاه أكثر ملاءمة للبيروقراطية الرأسمالية [٣] · من هنا اعتبر فيبر الكالفنية مصدر الالهام الحقيقي لنشأة النظام الرأسمالي إذا يؤكد أنها شكلت نسقا ثيولوجيا له معناه ، حيث احتوي هذا النسق علي عدد من القضايا التي شكلت في مجمعها نسقا منطقيا له تماسكه واتساقه، هذه القضايا هي :

١- أن هناك إلها واحدا ترنسندنتاليا ومطلقا، هو خالق الكون وحاكمه، حيث خصائص ومجالات فعله – بدون الوحي – بعيدة تماما عن الفهم البشري المحدود .

٢- أن هـذا الالـه قادر علي كل الأرواح الانسانية لأسباب بعيدة تمام عن الإدراك البشـري ويمثل الخلاص النهائي Eternal salvation و( المـوت والخطيئة الكاملة eternal sin and death) اعتقادت ثابتة من الأزل إلى الأبد ، وليس للايمان أو الارادة البشرية تأثير عليه .

٣- أن الله لأسباب غامضة تتعلق بخلق العالم، وضع الإنسان داخله بمفرده وذلك لمضاعفة G lorry مجده .

٤- ولهـــده الغاية فلقد قرر الله أن علي الإنسان، دون اعتبار إلى أنه قدر له الخـــلاص أم حلت عليه الإدانة، أن يعمل لتأسيس مملكة الله تعالي علي الأرض، وانه سوف يخضع أثناء ذلك للقانون الإلهي .

٥ـ أن علي الإنسان أن يترك مسائل هذا العالم ـ ذات الطبيعية البشرية والجسدية لذاتها ـ تذهب الي غير رجعة ( إلى الموت أو الخطيئة ) حيث لا مهرب منها إلا باللجوء الي تحقيق مجد الله (٤) وقد شكلت العناصر السابقة في مجموعها نسقا قيميا يحكم أو يضبط حركة التفاعل في النسق الرأسمالي بمنطق سبرنطيقي بحيث يتحكم في مسارات تفاعله، ويحكم بالتالي متضمنات السلوك لواقعي، في اطار النسق أو المجال الذي شهد هو الاخر عوامل ذات صلة بنشأة النظام الرأسمالي. أما انعكاسا لنسق الدين والقيم، وأما لكونها ذات انبثاق مستقل في اطار المجال، ولو أنها تتصل بشكل ما بنشأة البروتستنتية ذاتها .من هذه العوامل مثلا سيادة النزعة التقشفية، فنظرا للتعالي الكامل لله والانفصال بين المسائل الدنيوية والسماوية فإن هذا الوضع استبعد تماما الاتجاه الصوفي للاتحاد بروح السماء والاستغراق في اطارها غير ان تدعيم هذه الحقيقة قد تحقق بتصور الخضوع للقانون من أجل مجد الله ثم التفسير المرتبط بذلك علي أنه معين للانسان المختار وظيفة بناء مملكة الله في الارض والحفاظ عليها وفقا لارادة السماء. ومن ثم اصبحت الارادة هي علاقة الله الجوهرية بالإنسان .وأصبح الإنسان قبل كل شيء هو أداة الله، المطيعة أو المتمردة وفقا لطبيعة الحال وتصبح النتيجة الخالصة لذلك وفقا لما يذهب فيبر ، هي توجيه الطاقات الدينية نحو الاتجاه الايجابي التقسفي بدلا من الاتجاه الصوفي السلبي، فالله لا يمكن الاقتراب منه كلية وانما خدمته فقط ووفقا لذلك فخدمة الله لايمكن أن تكون لايمكن أن تكون في اتجاه الاستغراق الكامل في المسائل الحسية لهذا العالم. أو التكيف معها. ولكنها تكمن في السيطرة علي ماهو حي. وفي الخضوع للنظام من أجل مجد الله، وهذا ما

يعنيه فيبر بالنزعة الي التقشف [٥] .يرتبط بذلك ان العلم من ناحية ( وهو قيمة كالفنية، والتقشف وعدم انفاقه فيما هو دنيوي من ناحية أخري يؤدي الي التراكم العقلاني لرأس المال ) [٦] .ويعتبر ازدهار العلم الحديث من العوامل الهامة لازدهار الرأسمالية الغربية حيث يعتبر ذلك من نتائج الاعتقاد في صيغة الاله الترنسندنتالي المتعال والازدواجية المصاحبة لذلك ( بين العالم السماوي والعالم الحسي ) فمادام العالم اللامتنا هي هو من خلق الله، أو هو اظهار لإرادته ، فأفضل السبل لمعرفة الله هي أن ندرس أعماله حقيقة أن قرارات الله أبدية لا يستطيع البشر تغييرها أو حتي التدخل في نظام الطبيعة. ولأن الطبيعة في ذلك الوقت هي الطبيعة والله هو الله في هذا الإطار بعد تقديس الظواهر الطبيعية نوعا من عبادة الأوثان، ولقد أدي هذا الاعتقاد في النظام السماوي إلى نتيجتين، الأيمان بنظام الطبيعة حيث أصبح ذلك بلا شك دافعا هاما بالنسبة لتأسيس العلم الحديث للكشف عن القوانين الحاكمة له، وأدي ذلك أيضا إلى العداوة القوية نحو أية طقوس تتضمن نوعا من الوثنية أو الاعتقاد في المسائل الغيبية. وعلي ذلك فالجهد المتقشف ينبغي أن يؤدي في خدمة إرادة الله، ويتحول بعيدا عن المجالات الطقوسية إلى نوع من التحكم الايجاري في العلاقات الجوهرية المتعلقة بهذا العالم [٧] ويرتبط بالعلم ويستند إلي نشأة التكنولوجيا الحديثة أو ما يمكن تسميتها بالتكنولوجيا العقلانية التى سادت المجتمع الغربي، وأدت إلي تأسيس النظام الرأسمالي. يرتبط بذلك عوامل كاصطباغ الحياة الاقتصادية بالطابع التجارة وتأسيس العمل الحر [٨].
وإلي جانب اعتبار التكنولوجيا إحدى نتائج العلم الحديث فهي تتضمن رفض المنطق التقليدي لإنجاز الأعمال، وتنطوى علي أداء أكثر كفاءة لتحقيق مجد الله كما تملى ذلك القيم البروتستنتية في مذهبها الكالفني. ويعتبر تقسيم العمل الاجتماعي كما هو إبان الثورة الصناعية، بطبيعته التي هاجمها ماركس، وباركها إميل دوركيم من أهم عوامل قيام النظام الرأسمالي من وجهة نظر

ماكس فيبر، إذ تعتبر ظاهرة تقسيم العلم والمهن في المجتمع، نتيجة مباشرة للتصور الإلهى للأشياء. فتباين البشر إلي الطبقات والمهن يعتبر بالنسبة لمارتن لوثر Luther نتيجة مباشرة لإرادة السماء. فمواظبة الفرد ومثابرته في موقعه في إطار الحدود التي عينها الله لن يعتبر بالنسبة له واجبا دينيا[٩]. ومن ثم فالهدف الألهى لتقسيم العمل يعرفه بنتائجه. وفيما يتعلق بهذه النقطة يعبر باكستر Baxter عن ذلك بعبارة تذكرنا كثيرا بتأليه آدم سميث Adm Smith لتقسيم العمل، إذ يؤدى تخصص المهن من وجهة نظره- مادام هذا التخصص يجعل من الممكن تنمية المهارة – إلي تحسينات كمية وكيفية في الإنتاج. ومن ثم فهو يخدم الصالح المشترك الذي يتساوى وصالح أكبر عدد ممكن من البشر[١٠]. ومن ثم يصطبغ تقسيم العمل في النهاية بوجهة نظر النفعية الاجتماعية.ويكشف تحليل تقسيم العمل الاجتماعي عن تآزر ثلاثة عناصر أساسية، الأول هو شخصية الرأسمالي والثاني هو العامل أما الثالث فيتمثل في طبيعة المشروع الصناعي الذي يضمهما معا. فعلى نقيض التصور الماركسي المتعلق بتنمية الرأسمالى لرأسماله من خلال استيعابه لفائض قيمة علم البروليتاريا، نجد أن ماكس فيبر يحاول بأسلوب داحض توضيح كيف نشأ الرأسمالي. إذ يؤكد أنه في وقت ما جاب أحد صغار البشر البلاد، واختار النساجين الذين يستخدمهم، ثم زاد من دقة اشرافه عليهم وعلي عملهم، ومن ثم حولهم من فلاحين إلي عمال. ومن ناحية أخرى بدأ هذا الإنسان يغير من أساليبه في التسويق عن طريق الذهاب مباشرة إلي المستهلك النهائي للسلعة، حيث كان يتولي تفاصيل المقايضة بنفسه، وكان هو بنفسه الذي يغرى المستهلكين، يزورهم كل عام، وقد يكيف نوعية الإنتاج مباشرة وفقا لاحتياجاتهم ورغباتهم، وفي ذات الوقت،بدأ في التأكيد علي الأثمان الرخيصة في سبيل عائد كبير، ووقعت النتائج المعتادة لمثل هذه العملية الرشيدة دائما. ومن ثم فقد كان علي هؤلاء الذين لا يتكيفون وفقا

للمبادئ الجديدة أن يخرجوا من دائرة الأعمال. وأنهارت حالة الرومانتيكية تحت وطأة الصراع التنافسي الأكثر قسوة، ومن ثم تأسست ثروات طائلة لم تنفق ولكن أعيد استثمارها. وانتهى ذلك الفراغ القديم والاتجاه المريح نحو الحياة، ليحل محله الاقتصاد، والانفاق الصعب الذي يتحمله البعض من أجل الصعود إلي القمة، وأصبح الرأسماليون لا يرغبون في الاستهلاك ولكن في جمع المال. بينما كان علي هؤلاء الذين يرغبون في الحياة وفقا للأساليب القديمة أن يختصروا أنفاقاتهم[١١]. وفي أعقاب توضيح فيبر للمنطق التاريخي الذي قاد إلي ظهور الشخصية الرأسمالية فإنه يتجه عد ذلك إلي توضيح الخصائص التي تتلاءم ونمو واستمرارية النظام الرأسمالي. إذ يؤكد أن الرأسماليين بشر نشأوا في مدرسة الحياة الصعبة، فهم ذوو دقة وجرأة، وقبل كل شئ فهم معتدلون، ذوو ثقة بأنفسهم ويعتمد عليهم، أذكياء يدخرون وقتهم كله لأعمالهم، وذوو آراء ومبادئ برجوازية محددة. ثم يذهب إلي أنه من أهم ملامح الشخصية الرأسمالية أن لديها القدرة علي التحرر من التقاليد. وهي ذات نظرة ليبرالية متنورة. وإن ارتباطاتهم الدينية ضعيفة إلي حد ما، فمن الناحية الدينية ترى الرأسماليين لا يهتمون اليوم كثيرا بالمسائل الدينية، بل أننا نجد لديهم عداء للكنيسة. إذ يبدو الدين بالنسبة لهم وسيلة لجذب الناس بعيدا عن العلم في هذا العالم، فإذا سألتهم عن معنى جهدهم الذي لا يتوقف، لماذا لا يقنعون بما لديهم، فإنه قد يجيبونك (لكى أوفر ما يكفي أبنائي وأحفادي).وتتمثل الخاصية الثانية في العمل المستمر الدؤوب الذي يمثل نظرتهم الأساسية في الحياة. فالمصنع أو المشروع والعمل المستمر الذي يتم في إطاره يشكل جانبا هاما من حياتهم، وذلك هو في الحقيقة الدافع الوحيد. ورغم أن هذه الحياة قد تبدو لا عقلانية تماما. حيث يوجد الإنسان من أجل عمله وليس العكس[١٢]، فإنه لظروف عديدة ينشأ تقديس لها علي هذا النحو. بل أن الثروة تصبح موضعا للإدانة الأخلاقية إذا هي كانت طريقا إلي البطالة

والاستمتاع المذنب Sinful بالحياة. وامتلاكها يصبح سيئا حينما يكون الهدف من الحياة هو المرح والاستهانة. بالإضافة إلي ذلك هناك تقدير أخلاقي كبير لإنسان الطبقة الوسطى الصابر العصامي. (فالله يبارك تجارته) هي العبارة التي تشير إلي هؤلاء البشر الذين اتبعوا بنجاح إرشادات الله[١٣]. بل أن من خواص الشخصية الرأسمالية التي تعمل وفقا للتعاليم البروتستنتية عدم إستخدام الثروة في إكتساب قوة أو مهابة إجماعية. فالنموذج المثالي لصاحب العمل الرأسمالي كما بدأ في ألمانيا وفي أماكن كثيرة، لا يتصل أي صلة بطابع الانتهازية والتسلق. فهو يتجنب التظاهر والبذخ في الأنفاق، كما يتجنب أيضا الاستمتاع الشعوري بقوته. وقد يصاب بالارتباك حينما يقابل بالتسليم الاجتماعي أو الترحيب الخارجي. ويتميز أسلوب حياته بالميل إلي التقشف، فهو لا يأخذ شيئا من ثروته لذاته ما عدا الإحساس غير الرشيد بأنه قد أنجز عمله بدرجة جيدة[١٤].ويعتبر العامل هو العنصر الثاني في نظام تقسيم العمل الاجتماعي. وهو الآخر يمتلك عددا من الخصائص التي تيسر مشاركته في نشأة النظام الرأسمالي، وهي خصائص يشارك فيها الرأسمالي إلي جانب العامل علي السواء نذكر بعضها فيما يلي:

١- أول هذه الخصائص وجود اعتراض أخلاقي علي بعض السلوكيات غير المواتية للنمو الرأسمالي منها الركون إلي الدعه استنادا إلي ما قد يملكه الشخص، بالإضافة إلي الاستمتاع بالثروة وما يتلو ذلك من تعطل، ووطأة اغراء الحياة. وفوق كل شئ الابتعاد عن السعى الصحيح في الحياة. وفي الحقيقة فإنه بسبب تضمن الملكية لخطر الراحة، فإنه ينشأ اعتراض دائم عليها. فالملائكة هم الذين يستريحون تماما في عالم الأخرة، أما علي الأرض فينبغي علي الأنسان، لكي يتأكد من تحقيق مجد الله أن (ينجز أعمال الله الذي خلقه في يومها). فلا فراغ ولا متعة. ولكن عليه ان يبذل النشاط فقط لمضاعفة مجد الله، وأظهارا لإرداته الواضحة.

٢- يرتبط بذلك أن إضاعة الوقت يعتبر ذنبا، فحياة الإنسان قصيرة جدا وقيمة، ومن ثم فإضاعة الوقت، من خلال الفراغ والترف أو النوم بأكثر مما تحتاجه الصحة، يجلب الإدانة الأخلاقية الكاملة. فضياع ساعة وقت تعني ضياع ساعة عمل في تأكيد مجد الله، وعلي ذلك فالتأمل السلبي لا قيمة له، ويستحق الإدانة إذا كان علي حساب العمل اليومي، فليس أسعد لله من الأنجاز الإيجابي لإرادته[١٥].

٣- يرتبط بذلك أنه هناك تبريرا دينيا واضحا لتخفيض الأجور واستغلال العامل. إذ يؤكد فيبر أن رفع أجر العالم يعني أنه سوف يجد لديه أكثر مما يحتاجه لإشباع حاجاته التقليدية، ومن ثم فسوف يدفعه ذلك إلي التقليل من كم العمل[*] (لأن الرفصة لأخذ أجر أكبر أقل جاذبية من العمل الأقل)[١٦]. ومن هنا يرى فيبر أن تخفيض اجر العامل يعني انه سوف يعمل كثيرا لكي يحصل علي ذات الأجر الذي يكفي بالكاد لإشباع حاجاته الأساسية. ثم يؤكد أن علينا أن نأخذ بالحكمة الكالفنية القديمة (أن البشر يعملون فقط ما داموا فقراء).ويعتبر المشروع الرأسمالي هو المكون الثالث في بناء تقسيم العمل الاجتماعي، ومن ثم بناء النظام الرأسمالي. ويتميز المشروع الرأسمالي من وجهة نظر القيم البروتستنتية بعدة خصائص أساسية.

- إذا يتميز التنظيم الرأسمالي الرشيد والحديث بإستخدام العمل الحر المأجور، وهو في ذلك يختلف عن التنظيمات العديدة والخاصة بالعمل والتي سدات القرون الوسطى، كاستخدام العبيد، أو نظام العمل الذي

---

[*] يعطى فيبر مثالا علي ذلك بقوله أن العامل الذي ينال ماركا واحدا كأجر مقابل حصاد فدان. فإنه يقوم بحصاد ٢,٥ فدان من أجل الحصول علي الـ ٢,٥ مارك الكافية لإشباع حاجاته اليومية. فإذا ارتفع الأجر إلي ١,٢٥ مارك كأجر لحصاد الفدان، فإن العامل لن يحصد ثلاثة أفدنة من أجل الحصول علي ٣,٧٥ مارك، وأنما سوف يحصد فدانين فقط لكي يحصل علي ٢,٥ مارك التي اعتاد عليها. فالعامل لا يسأل نفسه ماذا يمكن أن آخذه إذا عملت بقدر الإمكان، ولكنه يسأل نفسه ما هو قدر العمل الذي ينبغي أن أبذله لكي أحصل علي الـ ٢,٥ مارك التي كنت آخذها من قبل والتي تكفي لإشباع حاجاتي التقليدية.

يســـود التنظيمات العائلية التقليدية، وأسلوب العمل في إطارها، كما هو الحال في الحضارات الصينية والهندية(١٧).

٢- إن التنظيم العقلاني الحديث للمشروع الرأسمالي قد لا يكون ممكنا بدون توافـــر عامل اساسي يتمثل في انفصال العمل عن المنزل، وهو ما يميز الحياة الاقتصادية الحديثة. حقيقة أن الأنفصال بين العمل والمنزل يوجد فـــي حضـــارات أخرى، غير أن ما وجد ليس إلا بدايات بسيطة إذا ما قورنت بالوضع الغربي الحديث.

٣- يتميز المشروع الرأسمالي أيضا بخاصية التبادل والمقايضة الحرة، سواء بين العناصر الأساسية التي تشكل في مجموع نواتجها عملية الإنتاج، أو تلـــك التـــي بين المشروع كوحدة من ناحية والمشروعات الأخرى من ناحـــية أخرى في إطار البناء الرأسمالي. فالمقايضة هي الأساس لتبادل السلع داخل المشروع وخارجه(١٨).

وإلـــي جانـــب العناصـــر أو الخصـــائص المكونة للنظام الرأسمالي والمؤكـــدة أساسا من قبل نسق القيم أو النسق الاجتماعي أو نسق الشخصية فإنـــنا نجد أن بناء النسق الرأسمالي في كليته قد يحتوى علي بعض العوامل التي يسرت تأسيسه واستمراريته، من هذه العوامل نذكر ما يلي:

١- إن ثمـــة صـــفات فارقـــة تميز الرأسمالية الحديثة عن كافة الرأسماليات السابقة، فمثلا ما يميز الرأسمالية الحديثة وجود الطبقة البرجوازية التي تتســـم بـــأخلاق ذات طابع عقلاني في إنجازاتها. هذا بالإضافة إلي أن المشـــرع الحـــر هو الوحدة الإنتاجية الأساسية وليس الأفراد المنعزلين الـــذي يتـــبعون صـــاحب العمل. يضاف إلي ذلك أن من أهم مميزات الرأسمالية الحديثة أو الرأسمالية البرجوازية الرشيدة هو (وجود التنظيم العقلانـــي للعمل الحر). كل هذه الصفات أستوجبت صفة أخرى مكملة تتمثل في التنظيم الاجتماعي الذي يسميه فيبر البيروقراطية(١٩).

٢- يعتبر الإتجاه إلي تراكم رأس المال من أهم خصائص وعوامل استمرارية الرأسمالية الحديثة، فما يشكل النظام الرأسمالي ليس فكرة الحد الأقصي للربح، ولكن التراكم غير المحدود. فكل تاجر يريد أن يحقق ربحا بقدر ما يستطيع في مقايضاته. ومن ثم فما يميز الرأسمالي وفقا لرؤية فيبر هو أنه لا يجد شهوته من أجل الكسب حسب العادة أو التقاليد، ولكننا نجده مدفوعا بالرغبة في الابقاء علي تراكم أكبر ومن ثم فالرغبة في الإنتاج تصبح غير محدودة(٢٠). وبذلك يصبح السعى لتراكم رأس المال غاية مدعمة أخلاقيا في ذاتها، فكسب المال أذن يعتبر ألتزاما أخلاقيا في حد ذاته(٢١).

٣- مثلت النزعة الرأسمالية انهيارا للنزعة التقليدية. فالرأسمالي لا يصاب إبدا بتخمة المال، وإنما يظل ساعيا بدأب وراءه. ففيما يتعلق بالمبدأ الاقتصادى الخاص بإشباع الحاجات الأساسية، نجده يتخذ في النظام الرأسمالى وضعا مخالفا للأوضاع التقليدية. فمثلا يختلف رد الفعل الطبيعي لارتفاع مقابل وحدة الإنتاج، ليس بالرغبة في العمل أكثر للحصول علي عائد أكبر، بل بالعمل الأقل للحصول علي نفس الأجر الذي كان يحصل عليه من قبل(٢٢). هذا الاتجاه التقليدي نجده ينهار في إطار النظام الرأسمالي، والنتيجة هي تحرر الكسب من أية قيود، ومن ثم يصبح عملية مستمرة بلا نهاية. ويتم ترشيد هذا الاتجاه نحو الكسب باعتباره التزاما أخلاقيا في حد ذاته.

بالإضافة إلي ذلك تعتبر روح الرأسمالية مضادة للنزعة التقليدية من خلال علاقتها بالعمليات الواقعية لمناشط الكسب. فبدلا من الموافقة التلقائية علي أساليب إنجاز الأعمال كما هي، يقوم الاتجاه الراسمالي بإعادة تنظيم مختلف الجهود لأداء نفس الوظيفة في إطار ذلك تصبح زيادة رأس المال غاية أبدية مقدسة لا يمكن المساس بها، أما الوسائل لتحقيق ذلك فلا تقديس

لها، وأنما تختار من جديد بما يلائم كل موقف وسياق اجتماعي [٢٣] . مثل هذا التناقض مع النزعة التقليدية يمنح الروح الرأسمالية طابعا ديناميا قويا يفي بكل الأغراض التي يوكلها فيبر لهذه الروح.

٤ـ طبيعة النظرة إلي العمل تعتبر من أهم الملامح التي ساعدت علي دفع النظام الرأسمالي وتطويره. إذ تضمنت روح النظام الرأسمالي أتجاها خاصا إلي العمل، سواء كان الكسب هو الغاية المباشرة لهذا العمل أم لا. فلم يعد ينظر إلي العمل علي أنه شر لابد منه، وأنما أصبح العمل ينجز علي أنه التزام أخلاقي، أو مجال لتحقيق أكثر أهداف الإنسان أخلاقية، فالاتجاه نحو العمل هو الذي يسميه فبلن Ve blen (روح العمل Spirit of workman ship ) حيث يعتبر أحد ملامحها ذلك الشعور الأخلاقي المضاد للتقاعد عن العمل الأيجابي البناء، فالإنسان الذي لا ينتج، مادامت لديه الصحة والقدرة، هو أنسان يغفل مسئولياته الأخلاقية [٢٤] .

٥ـ خضوع الحياة الاجتماعية في النظام الرأسمالي لدرجة عالية من الضبط فـي إطـار تنظـيم عقلاني يعرف بالتنظيم البيروقراطي. ورغم وجود التنظـيم البيروقراطـي في عهود سابقة كما كانت الحال في أسر مصر الحديـثة، والإمبراطورية الرومانية، والإمبراطورية الصينية، والكنيسة الرومانـية والكاثولية، نجد أن البيروقراطية كما تخيلها فيبر ذات سمات بنائـية متمـيزة [٢٥] .إذ يتطلب التنظيم البيروقراطي تكريسا حياديا ولا شخصـيا للعمل، واستعداد للتلاؤم مع متطلبات الموقف المعقد والمكون مـن المناشـط المتخصصـة والمتآزرة. ذلك يتضمن بالمثل الخضوع الكـامل للنظام في حدود الوظيفة وتعتبر روح الرأسمالية بالنسبة لفيبر حالـة خاصة من الروح المهنية Professional spirit أو الحرفية، وهي

الاتجــاه المحـــدد الـــذي تحتاجه البيروقراطية من أجل الأداء الوظيفي الفعال (٢٦) .

## ثانيا : دور الدين والقيم في تأسيس النظام الرأسمالي

الـــذي لا شك فيه أن مجال علم الاجتماع الديني ضم أكثر تحليلات مـــاكس فيـــبر عمقـــا وبصيرة، بل لعلنا نؤكد أن علم الاجتماع الديني بمعناه العقلانـــي قـــد أسس ميلاده ماكس فيبر. وقد ارتكز اهتمام ماكس فيبر بعلم الاجتماع الديني علي عاملين أساسين، الأول منهجي ويرتبط بأفكاره النظرية التـــي تؤكـــد أن اطار نحاول من خلاله ادراك الواقع ما هو إلا مجموعة من الفرضـــيات الانتقائـــية. ومـــن ثم فإذا أكدت الماركسية علي أهمية الاقتصاد ووســـائل الانتاج كعناصر محورية في صياغة التفاعل الواقعي. فإن ماكس فيـــبر في مقابل ذلك أكد علي الدين والقيم كعناصر محورية ــ إذا تضافرت مـــع عناصر أخري ــ فإنها سوف تلعب بلا شك دور المتغير المستقل في قـــيادة الـــتفاعل الاجتماعي أما العامل الثاني فيتضح من كون علم الاجتماع الدينـــي المقارن لدي ماكس فيبر لا يتكون فقط من سلسلة الدراسات للحالات التي تساعد علي تحديد العناصر الدينية التي تعوق الرأسمالية في المجتمعات الحديـــثة غير الغربية. حيث كانت هذه الدراسات مهتمة أساسا بقضية النظام الرأسمالي الذي كان موضع تركيز أطرها النظرية[٢٧] .إرتباطا بذلك نجد ان فيـــبر كـــان مهـــتما بانســـاق الأفكـــار الدينـــية كعناصر فارقة في التطور الاجتماعـــــي[٢٨] .بـــيد أننا في هذه الفترة نري ضرورة أن ينصب الاهتمام أساسا ليس علي البروتستنتية باعتبارها الأصل الثيولوجي للنظام الرأسمالي . ولكـــن نـــود توضيح نظرة ماكس فيبر إلي الدين كنظام اجتماعي في نشأته ومكانته بالنظر إلي العناصر البنائية الأخري. وفيما يتعلق بنشأة الدين نجد ان مـــاكس فيبر يؤمن بأن مختلف الأديان العالمية ذات أصل واحد . إذ يؤكد أن ثمـــة شـــيئا مـــا يعتبر نقطة ثابتة تعتبر الأصل المشترك لكل عمليات النشأة

والتطور الديني، قد تعتبر هذه النقطة الديانة البدائية الشاملة. ووفقا لما يذهب إليه فيبر فإنه يعتقد أن كل النماذج الممكنة للأنساق الدينية نشأت عن طريق التباين مع نقطة البداية الأساسية المشتركة هذه. ومن ثم تمثل الديان الممكنات المحددة لهذا الأصل الديني المشترك، وبالتالي فإن الأهتمام الحالي يجب أن ينصب ليس علي التطبيقات التاريخية، ولكن يجب ان ينصب علي طبيعة العلاقات المنطقية لعناصر النموذج الديني المختلفة [٢٩] .

وبذلك يهدف ماكس فيبر إلي أعتبار النسق الديني منذ البداية متغيرا مستقلا بدأ مع نشأة الوجود الاجتماعي ذاتهن ومن ثم فله تطوره المستقل الذي لا يجعل مه انعكاسا لعوامل مادية، بقدر ما يكون هذا التطور مجرد تفرع جديد لأصل قديم، موجود منذ الأزل يتمثل في البدائية المشتركة .بعد ذلك يحاول ماكس فيبر تحليل النسق الديني من الداخل في علاقته بالسياق المحيط، حيث ينقسم العالم من خلال الدين إلي عالم ما فوق الطبيعة الذي يحتوي علي مجموعة من الذوات التي تضم بينها الآلهة وحتي الشياطين. وهو يختلف عن العالم الأرضي واليومي الذي نعيشه عادة. أما كيف ندرك ذوات عالم ما فوق الطبيعة، ثم طبعة علاقات هذا العالم بالعالم الطبيعي الذي نعيشه، فهي مسائل ذات تنوع كبير[٣٠]. يؤكد فيبر المانا Mana البدائية أو الكارزما الدينية الملهمة ما هيْ إلا وسيط بين عالم الطبيعة وذوات عالم ما فوق الطبعة . ثم يذهب إلي أن خاصية التميز، أو الكارزما عادة ما تنسب للأفعال أو الموضوعات أو الكائنات البشرية، المتصلة بعالم الحياة اليومية.أما هذه الخاصية المشار إليها فعادة ما تكون اظهارا للقوي أو الذوات فوق الطبيعة، ومن ثم فمن الضروري فرض نوع من التميز بين العناصر الطبيعية من ناحية وفوق الطبيعة من ناحية أخري في أطار هذه الموضوعات الواقعية [٣١] . ويعني ذلك أن ماكس فيبر يخلق واسطة بشرية ذات قدرة أو إمكانية علي تجسيد مقتضيات الذوات الغيبية في الواقع الدينوي

ومن ثم يصبح الواقع لديه اظهارا للفكرة علي خلاف النظرية الماركسية التي تعاكس ذلك. ذلك يعني أن ماكس فيبر يستعد ثانية المثالية الهيجلية بأقوي ما تكون .

أمـــا ذلك الشخص الكارزمي ذو التميز الخاص، فهو أما أن يكون ساحرا أو نبـــيا، وهـــو النبي في الديانة السماوية والكتابية. ويعرف فيبر النبي علي أنه الشـــخص الحامل للكارزما الذي بالنظر إلي رسالته يبشر بالعقيدة الدينية او بأوامـــر الســـماء. أنه شخص له رسالته دائما، ويشعر دائما بأن له روابطه الخاصة مع الذات أو نظام ما فوق الطبيعة. وهو يبشر رسالته دون ما تسلط بالاســـتعانة بأيـــة وســـائل إنســـانية، حيث أنه يكون في الحقيقة علي رفض شـــعوري أكـــد هذه الوسائل، فعيسي عليه السلام يقول ( أنه مكتوب .. وأنا أقـــرؤه عليكم ) . ويميز ماكس فيبر نموذجين أساسين للنبوة. فإما ان يشعر النبـــي بأنـــه وسيلة في يد العناية الإلهية، بحيث يبلغ باسمها آمرا أو معيارا ينبغي علي البشر التطابق معه كواجب أخلاقي. هذه النبوة الأخلاقية Ethical Prophecy ( عيســـي ، محمـــد ) أو أن يكون النبي هو ذلك الشخص الذي يظهر من حيث كونه مثالا للآخرين يرسم لهم الطريق إلى الخلاص الديني ( بوذا Buddha ) وهو ما يسميه فيبر بالنبوة المثالية Examplary prophecy وأيا كانت النبوة طبيعة النبوة موضع الاهتمام فالنبوة عادة ما تضمن بالنسبة للنبي أولا ومن ثم لأتباعه اتجاها واحدا نحو الحياة يتحقق عن طريق موقف متعمد له معناه تجاه هذه الحياة. ومن ثم فالنشاط البشري لكي يلبي الحاجات الدينـــية، علـــيه أن يتكـــيف مع المعني المتسق لهذا العالم المتضمن في هذا الموقف. ويشعر النبي الأخلاقي أنه وسيلة العناية الألهية، ومن ثم فإن جزءا مـــن رسالته هو أن يمنح البشر المعايير الأخلاقية التي ينبغي عليهم التكيف معها، وتختلف هذه المعايير بشكل واضح عن الحالة التقليدية السائدة أو التي تـــؤدي إلي ترشيد الموقف في أتجاه محدد. ومن ثم فالارادة التي يعتبر النبي

وسـيلتها، والتــي تعتبر مصدرا للمعايير الجديدة، لا يمكن أن تكون مجرد أظهار لنظام متكشف لهذا العالم بالنحو الذي هو عليه. ومن هنا فإن ما يلائم النـبوة الأخلاقـية أو يرتـبط بهـا هـو تصور لشخصية ألهية ذات طبيعة ترنسندنتالية يهتم بالكون والنظام الانساني الموجود، وإن لم تكن متضمنة في اطـاره أساسا [٣٢] . ولأن النبوة تتضمن معني جديدا لهذا العالم غير المعني المخلـوع علـيه والذي أصبح تراثا وتقليدا، فإنها عادة ما تصادم من حيث موقفها المضاد مع النظام القائم ومن ثم يتخلق صراع بين المعني الذي تأتي بـه الديانـة الجديـدة ومعاني الديانة القديمة، وفي أطار هذا الصراع ينشأ اتجاهـان أساسيان يتلاءمان مع النظرة العقلانية المتسقة مع ما هو قائم، فمن الواضـح أن نشـأة النبوة لا تقود إلي الموافقة علي العالم كما هو . ومن ثم فـبقدر الامكـان يمكـن ضبط الأمور الدنيوية والسيطرة عليها بالنظر إلي الأفكار الدينية. أو أنها من ناحية أخري قد ترذي بشكل متطرف وتصبح غير ذات قـيمة. وبتعبير ماكس فيبر يعتبر الاتجاه الأول تقشفيا بينما يعتبر الآخر تصـوفا، بحيث يمكن تقسيم كل منهما فرعيا إلي نماذج عديدة [٣٣] . ويتحمل عبء كل هذين الأتجاهين بشكل راديكالي متطرف أقلية دينية مؤمنة. ويرتبط الـنموذج المتقشـف للخـلاص بالنبوة، حيث يشعر الفرد بإنه وسيلة للإرادة الإلهـية ومْن ثم فينبغي عليه أن يخضع العرف الأخلاقي التقليدي لنقد صارم إستناداً إلي متطلبات هذه الإرادة وعليه أيضا ان يحدد لنفسه مثلا مختلفة عن تلـك المـثل السائدة. إذ يصبح العالم من وجهة نظره مخطئا Sinful وشرا بأكملـه، شـيئا مـا ينبغي مقاومته والسيطرة عليه .ووفقا لطبيعة الظروف السـائدة تتخذ المقاومة أو الاتجاه للسيطرة أحد الاتجاهين الذين أشرنا اليهما. فإما أن يكون العالم الذي يحارب وينبغي السيطرة عليه داخل الذات، ومن ثم لا يكون للأنسان علي هذا النحو أية واجبات ايجابية خارج ذاته في اطار ذلك نجـد أن المتقشـف يتجنـب العالم، كناسك أو راهب، بيد انه حينما يستبعد

الانعـــزال عن الانعزال عن العالم كما هو الحال في البروتستنتية فإن المسلك الوحـــيد ان الانســـان لا يـــتجه إلي السيطرة علي الذات فقط ولكن علي بقية العالم، الذي يظل مع ذلك باقيا علي خطيئته. وفي اطار الاتجاه الثاني تتأسس غايـــة الخـــلاص من خلال العمل علي تحقيق مكانة استثنائية عليا من خلال ( خـــبرة التصوف Mystical Experience ) ولا يستطيع الحصول علي هذه المكانـــة ســـوي الأقلـــية فقط مستخدمين التأمل كوسيلة منهجية لتحقيق ذلك. وحيـــث تبدو الرغبات في هذا العالم مجرد منغصات في الأطار فإن الفرد لا يخبر هذه الرغبات وأنما يتجنبها وتكون النتيجة عدم الأهتمام بهذا العالم ، أما عن طريق تجنبها بقدر الامكان كما هي الحال من خلال التصوف، أو الحياة فـــي العالم ولكن ليس به ومن ثم سقوط أي داخلي به. وإذا كان من الصعب تحلـــيل علاقة هذه الأساليب المختلفة لتحقيق الخلاص بمختلف عناصر الحياة الأجتماعـــية، فإنـــه يمكن القول بشكل عام أنه كلما كان الأنسان أكثر تصوفا كان من الصعب تأسيس تنظيم اجتماعي مستقر علي أساس ديني وكان تأثيرا افكـــار الدينـــية علـــي المجتمع ضئيلا ويؤكد فيبر أن البوذية تمثل النموذج المـــتطرف في هذا الاتجاه .ذلك يعني أنه إذا كان التقشف هو الاتجاه الغالب كلمـــا تحقـــق العكس في ظل ظروف اجتماعية أخري. وعلي عكس التقشف المـــتعلق بالعـــالم الاخـــر والذي قد يصبح لا اجتماعيا بشكل منطرف، يمثل التقشـــف المتعلق بهذا العالم كالبروتستنتية ــ أكثر الاهتمامات الدينية امكانية في صياغة وتنظيم الحياة في هذا العالم علي هيئة المثال الديني الرشيد (٣٤) . مجمل القول أن النبوة والديانة الجديدة التي تشكل المعني الجديد الذي تأتي به النـــبوة إلي هذا العالم، تعتبر ثورة دينية دائما، لأنها تخاطب كل ابسر وليس فـــئة مـــنهم، ولأنهـــا أيضا تؤسس تناقصا بين هذا العالم والعالم الاخر. بين الاشـــياء الواقعية من ناحية، ومن رؤية الكارزما من ناحية أخري . وبرغم

ذلــك فــإن النــبوة ــ علي ما يذهب فيبر ــ تثير مشكلة صعبة أمام العقل البشري، فلو سلم الأنسان بوجود خالق واحد، فكيف له أن يبرر الشر؟ (٣٥) هــذا بالإضــافة إلي تساؤلات أخري كثيرة علي النبوة أن تطرح أجابة لها، كالســبب في خلق الله للعالم الذي يواجه الإنسان فيه بسوء الحظ؟ وغير ذلك مــن التســاؤلات المتعددة التي تحاول أن تستكشف علاقة الإنسان بعالمه، و العالم التي تسكنه الآلهة جوهر القضية التي يريد فيبر تأكيدها في هذا الاطار أن الديانــة تشــكل مصدرا لتجديدات إبداعية كثيرة، قد تؤدي هذه التجديدات إلــي نوع من عدم التكامل المؤقت . غير أنها علي المدي الطويل تسهم في صــياغة التكامل لمجتمع جديد من نوع (٣٦) .بذلك تصبح الديانة الجديدة في مجملها أساسا لتنظيم اجتماعي جديد وليست مجرد أحد مظاهره فقط (٣٧) .

وبهــذه المقولة الأخيرة يرفض فيبر أن يكون الدين إنعكاسا للجوانب المادية والاقتصــادية، كما تذهب الماركسية. غير ان القضية الجوهرية التي تطرح نفسها، أنه إذا كان التنظيم الاجتماعي الاجتماعي انعكاسا لرؤية حجتها العناية الآلهــية. التــي تصــل إلي الواقع من خلال كارزما النبوة، فما هي طبيعة المــرحلة التــي عادة ما تستدعي هذا التصور الجديد، أو ما هي الشروط أو الظــروف البنائــية التي تستلزمه .إجابة علي ذلك يرجع ماكس فيبر ظهور النــبوة وتبنــي أفكار دينية جديدة بواسطة المجتمع إلي ثلاثة شروط رئيسية ويــتعلق الشرط الاولي بظهور النبوة ذاتها وربما العملية الدينية ككل، حيث نسبتها بدرجة كبيرة إلي طبيعة المواقف الاجتماعية السائدة. حينما تكون القيم التقليدية مهتزة بحيث يدعو ذلك إلي انفجار الصراع الصريح، ومن ثم تظهر الحاجــة إلي موقف جديد في مواجهة هذا الانهيار . أما الشرط الثاني فيتصل بأنــه حينما يكون المجتمع متباينا فإن القضايا المتعلقة بمعني العالم لن تكون ذاتهــا بالنســبة لكل طبقات المجتمع. ومن ثم كان هناك ارتباطا بين الدلالة الاجتماعــية لنســق الأفكار الدينية وطبيعة المصالح السائدة فإن الأفكار التي

ســـوف يرتـــبط بها الانسان سوف تعتمد علي طبيعة المشاكل التي يواجهها. لـــيس بمعنـــي أن مصالح تشكل أفكارها الدينية، ولكن من وجهة نظر فيبر بمعني أن أنماطا معينة من المواقف الطبقية تجعل أعطاءها أكثر قبولا لنمط معين من التفكير الديني دون أخر، أو لفكرة الخلاص ككل. أما الشرط الثالث فيتعلق بارتباط فرص انتشار وسيادة عقيدة دينية معينة في اطار وجود ثقافي محـــدد بمركـــز الطـــبقة التي تبشر بها، وفي اطار بناء القوة أو المسيطرة الاجتماعـــية (٣٨) .ويتضـــح ذلـــك من اتخاذ البراهما كمثال في نسق العقيدة الهـــندي . خاتمـــة المطاف أذن أن التنظيم الاجتماعي بأنساقه المتعددة يعتبر متغـــيرا تابعـــا لمتغير مستقل، هو المثال الذي تفترضه العناية الالهية الذي تـــتحقق فـــي اطاره أرادة السماء، والتي ترسخ فاعليتها من خلال متغيرات وســـيطة مـــنها كارزمـــية الأنبياء، وانهيار بناء الثقافة والقيم في المجتمع، وأنتشـــار الصـــراع الاجتماعي وتباين رؤية فئاته لمعني الآشياء ومنها أيضا الـــوزن والقوة الاجتماعية أو حتي الفرد المبشر بالديانة الجديدة بحيث يشير كـــل ذلك في مجمله إلي تأسيس موقف نظري يرفض في مجمله كل ما جاء في المشروع الماركسي .

## ثالثا : الفعل الاجتماعي ، نماذجه الرئيسية .

يعتـــبر مفهوم الاجتماعي من المفاهيم الرئيسية التي أسهم بها ماكس فيبر في بـــناء النظرية لماكس فيبر . ونظرا لأن مفهوم الفعل يعتبر العنصر الأساسي الـــذي يشكل جوهر المشروع النظري لماكس فيبر. ونظرا لأن مفهوم الفعل يعتبر هو نقطة البدء المنطقية عند ماكس فيبر فإننا نجده يذهب إلي أننا نطلق الفعـــل علـــي أي أتجـــاه أو نشـــاط انساني يخلع عليه الفاعلون أو مجموعة الفاعلين معني ذاتيا (٣٩) . ويعتبر الفعل لا إجتماعيا إذا كان موجها فقط نحو ســـلوك الموضـــوعات غير الحية. أما الفعل الاجتماعي فنشير إليه بأنه ذلك الفعـــل الـــذي ـــ وفقـــا لمعناه الذاتي بالنسبة للفاعل أو مجموعة الفاعلين ـــ

يتضـــمن اتجاهـــات وأفعـــال الآخرين، وهو بدوره موجه اليهم. بذلك يشكل الاتجـــاه الذاتـــي نحـــو الآخرين البعد الاجتماعي في الفعل، بشرط ان يكون موجهـــا نحـــو سلوك الآخرين (٤٠) . ويختلف الفعل عن السلوك، إذا حاولنا مقارنـــتهما ببعضها، إذ يعتبر السلوك هو ذلك الجزء من الفعل الذي يلاحظه الباحـــث حيـــنما يستنتج دافعه. أما الفعل فهو الدافع والسلوك معا في علاقة الوســـائل بالغاية. ذلك لأن أي سلوك يعتبر بلا معني بدون دوافعه، والدوافع أيضـــا لا يمكـــن تحديد بدون سلوكه. بذلك يكون الفعل الاجتماعي هو الذي يجمـــع بين الدوافع الاجتماعية والسلوك. ومن ثم فإذا تناول الباحث الفعل في ذاته فإنه يكون ذلك الذي بين الدافع السيكولوجي والسلوك الفردي (٤١) . ذلك يعنـــي أن السلوك في حد ذاته يعتبر وحدة تحليلية غير مكتملة، تكتمل أحيانا حيـــنما يرتبط الدافع السيكولوجي بالسلوك الفردي، ليصبح فعلا إنسانيا أنجزه فـــاعل. بيـــنما يصـــبح هذا الفعل اجتماعيا إذا كانت الدوافع أو الغايات ذات طبيعة اجتماعية أساسا .

والحـــق أن ماكس فيبر فد أولي مسألة تصنيف الفعل أهمية كبري، استغرقت مـــا يـــزيد علي نصف عمله الفكري. إذا يري فيبر أن علم الإجتماع هو في الـــنهاية ذلـــك العلـــم الـــذي يبحـــث عـــن الفهـــم التفسيري Intrepertive understanding للفعـــل الاجتماعـــي مـــن أجل الوصول إلي التفسير السببي ونـــتائجه (٤٢). وتنبـــثق أهمية الفعل كموضوع رئيسي لعلم الاجتماع ــ من وجهة نظر ماكس فيبر ــ من الاعتبارات الأساسية التالية :

١ــ يـــنظر فيـــبر إلـــي علـــم الاجتماع كعلم شامل Comprehensive للفعل الاجتماعـــي، ومن ثم تصبح صياغة نماذج الفعل Typology of Action أكـــثر مستويات النسق التصوري تجريدا وملاءمة للمجال الاجتماعي. إذ يعـــتمد تصـــنيفه لـــنماذج الســـلطة والسيطرة مثلا ـــ السلطة العقلانية،

والتقلـيدية، والكارزمية ــ علي تصنيف نماذج الفعل الأربعة الأعلي من حيث مستواها التجريدي.

٢ــ أن أعتبار علم الاجتماع علما شاملا للفعل، يعني أن صفة الشمول تشتق مـن تضمنه فهما للمعني الذي يخلعه الانسان علي سلوكه. وهنا نجد أنه بيـنما يحكم باريتو Pareto علي منطقية الفعل من وجهة نظر الملاحظ، نجـد أن الهـدف الأساسي بالنسبة لفيبر هو فهم المعني الذي يخلعه كل أنسـان علي سلوكه، بحيث يصبح ذلك أساسا للفهم الشامل للمعاني الذاتية للفعـل ولكـي تـدرك المعاني التي يخلعها الفاعل علي سلوكه فإن علي الباحـث أن يـنجز تصـنيفا للسـلوك كمقدمة أساسية لفهم وإدراك بناء السلوك.

٣ــ إلي حد ما يتصل فيبر لنماذج الفعل بتفسيره لطبيعة المرحلة المعاصرة، فوفقـا لماكس فيبر نجد أن الخاصية الأساسية للعالم الذي نعيش فيه هي العقلانـية. إذ تعتبر العقلانية الخاصية المميزة للمجتمعات الحديثة باتساع مجال الفعل العقلاني بالنظر إلي الهدف، ويميل المجتمع ككل نحو التنظيم العقلاني بالنظر إلي الهدف وتكمن المشكلة الإنسانية والوجودية والفلسفية فـي أسـلوب أقسام المجتمع التي يمكن أن يوجد في إطارها نموذج آخر للفعل .

٤ــ يرتـبط تصنيف نماذج الفعل لدي فيبر بما يشكل جوهر تفكيره الفلسفي، ونقصـد بذلك علاقات الصلة بين العلم والسياسـة من وجهة نظر ماكس فيـبر[٤٣] . ويصـنف ماكس فيبر الفعل الاجتماعي إلي أربعة أساسية نذكرها فيما يلي :

(أ) تـتحدد عقلانية الفعل العقلاني بالنظر إلي الهدف Rational Action in relation to goal من خلال توقع الفاعل لسلوك موضوعات البيئة الخارجية، بحيـث تلعب هذه التوقعات المتعلقة البيئة الخارجية بكل عقلاني[٤٤] . بذلك

نجد أن هناك صلة ما بين الفعل العقلاني بالنظر إلي الهدف عند فيبر والفعل المنطقي عند باريتو. حيث نمثل لهذا الفعل بفعل المهندس الذي يبني قنطرة أو الجنرال الذي يريد أن يحقق النصر في الحرب. في مثل هذه الحالات يتميز الفعل بحقيقة أن الفاعل يدرك هدفه بوضوح، ومن ثم يجمع الوسائل لتحقيقه وفيما يتعلق بهذا النموذج للفعل لا يحدد فيبر بوضوح طبيعة الفعل الذي يختار لإنجازه الفاعل وسائل غير ملائمة، ربما بسبب عدم دقة المعلومات، حيث يعتبر هذا الفعل فعلا غير عقلاني. بعبارة آخر نجد أن فيبر يحدد العقلانية بالنظر إلي قدر المعرفة التي لدي الفاعل، وليست تلك التي لدي الباحث القائم بالتحليل كما يذهب باريتو.

(ب) أما الفعل العقلاني بالنظر إلي القيمة Rational Action in relation to value فهو الفعل الذي ينجز من خلال الاعتقاد الشعوري بالقيم المطلقة ذاتها، سوء فسر كفعل أخلاقي أو فعل تقشفي أو ديني، حيث يتميز بالاعتقاد في مسار محدد للسلوك في ذاته دون اعتبار لنتائجه والفعل العقلاني بالنظر إلي القيمة يماثل إلي حد كبير فعل لاسالLassalle الذي عرض نفسه للقتل في مبارزة، أو فعل القائد البحري الشجاع الذي يغرق نفسه في سفينة مع سفينته ويكتسب الفعل عقلانيته ليس من خلال محاولته تحقيق هدف خارجي، محدد ولن لأن التخاذل عن تحقيقه ( التراجع عن المبارزة في حال لاسال، أو التخلي عن السفينة الغارقة ) ينظر إليه كنوع من العار، ومن ثم نجد أن الفاعل يتصرف عقلانيا حتي يظل أمنيا علي فكرة أو قيمة الشرف لديه .

(ج) وفيما يتعلق بالفعل التأثري Affective or errational Action ؛ و بخاصة فإنه يتجلي من خلال حالات معينة للشعور أو الوعي. ويطلق فيبر هذه التسمية علي الفعل الذي يتأسس بناء علي المرحلة العقلية أو الانفعالية للفاعل بصفعة الأم لطفلها ، لسوء سلوكها، والضربة التي قد يوجهها لاعب لزميله بسبب أفتقاده السيطرة علي نفسه، تعني أن فعلا قد وقع أو تحقق ليس

بالـــنظر إلي الهدف أو إلي النسق القيم ولكن برد الفعل العاطفي للفاعل الذي وضـــع فـــي أطار ظروف محددة وفي أحيان كثيرة نجد أن فيبر يعادل بين الفعل العاطفي والفعل اللاعقلاني .

( د) أمـــا الفعل التقليدي Traditional Action فإننا نجد أن فيبر يطرح تعريفا كاملا واضحا له من خلال توضيحه للنزعة التقليدية Traditionalism كمفهوم عـــام فخلال مناقشته لمفهوم النظام المشروع Ligitmate order نجده يؤكد أن مشـــروعية أي نظام يمكن أن ينسبها فاعليتها له بالنظر إلي التقاليد. ومن هنا يساعد التقليد علي الموافقة علي الجانب المعياري للنسق الاجتماعي صراحة وبصورة محددة ومن ثم فالعادة ليست ذات طابع معياري في ذاتها، وأنما هي ميكانـــيزما ونمـــط واقعي للسلوك، غير أنها ليست أسلوبا ينبغي علي البشر التصـــرف وفقا له [٤٥] . من هنا فالفعل التقليدي هو الفعل الذي تقره العادات والمعتقدات بحيث يصبح معتادا Habitual ويشكل طبيعة ثانية للإنسان . ومن ثـــم يصبح الفاعل الذي يتصرف وفقا للتقاليد غير محتاج لأن يتصور الهدف أو القـــيمة المـــتعلقة بفعلـــه أو تصرفه كذلك لا يحتاج أن يندفع لتحقيق فعله بالـــنظر إلـــي المشاعر والعواطف المباشرة وإنما هو يطيع إراديا ما أصبح مفروضـــا عليه شرطيا [٤٦] .غير أن تصنيف ماكس فيبر لنماذج الفعل ينبغي النظر اليها من خلال الاعتبارات التالية :

١ــ أن الفعـــل الاجتماعـــي أن كانـــت منطلقاته ودوافعه من خلال نسق الشخصـــية في معظم الأحيان، إلا أنه كعملية تقع في المجال الاجتماعي نجـــده يخضـــع لمجموعـــة من الشروط الموضوعية التي تكسبه طابعه الاجتماعـــي وتتابين نماذج الفعل بالنظر إلي درجة خضوعها لمجموعة الشروط الموضوعية الكائنة في الموقف الاجتماعي .

٢ــ أن ملامــح نمــاذج الفعــل تجرد من عناصر الفعل الواقعي الأكثر أساســية، ومــن ثم ففي كل نموذج عناصر عديدة من النماذج الآخري. وبذلك فإن النموذج يصنف وفقا لطبيعة عناصره الأساسية الغالبة.

٣ــ أن الفعــل التأثــيري علي خلاف الفعل العقلاني بالنظر إلي الهدف يــنطلق أساســا بغريــزية الكائن الفردي، وهي أكثر ارتباطا بالشرائح البيولوجــية والسيكولوجية للشخصية، وأكثر انتشارا في المجتمعات ذات السياقات البدائية أو المتخلفة .

٤ــ أنــه ينبغــي الحــذر الشــديد من الخلط بين النموذج المثالي للفعل والتشكل الواقعي الملموس لذات الفعل، حيث عادة ما يكون هناك خلاف بينهما يعزي أساسا لديناميات عملية التجريد .

ويؤكــد دون مارتندال ارتباطا كل من نماذج الفعل بسياق اجتماعي أكثر ملاءمة، ومن ثم فهي لا توجد متعايشة بشكل متوازن في أطار ذات الســياق الاجتماعي فالنزعة العقلانية للفعل تشق طريقها عادة من خلال القضــاء علــي الأنماط التقليدية للسلوك. ذلك أن تحديد الغايات قد يدعم أنتشارا العقلانية داخل مجالات الحياة، بينما يسير الفعل العاطفي المجال الاجتماعــي لــنماذج آخري من الفعل التي تسود دائما سلوكيات الحشد Mob والفــترات الــثورية [٤٧] . بــيد أنه إذا كان لدينا وجود نسقي من ناحية، وفعل فردي يأتيه فاعل في مجال اجتماعي من ناحية آخري، إذن ماهــي طبــيعة الصلة التي تؤسس تشكل الأولي من خلال الأخير، كما يذهــب فيــبر، أو تحــدد طبــيعة الأخير بواسطة الأول علي ما يذهب دوركيم. في اطار ذلك نجد أن فيبر يري أن هذه الصلة تتمثل في مفهوم العلاقة الاجتماعية. حيث يؤكد أن مفهوم العلاقات الاجتماعية هو قنطرة العــبور مــن الفعــل الاجتماعي إلي الوجود الاجتماعي النسقي [٤٨]. إذ يذهــب فيبر إلي أن العلاقة الاجتماعية هي العنصر الذي ييسر الانتقال

مــن الأفعال الفردية إلي أنماط السلوك ومن ثم يتغير العلاقة الاجتماعية مفهوما محوريا نتحرك بواسطته من الفعل الاجتماعي إلي فعل الشخص أو الجماعــة أو الــنظم والمجــتمعات (٤٩) . ويحدد فيبر طبيعة العلاقة الاجتماعــية بالــنظر إلي طبيعة العلاقات المتوقعة بين الأنا والآخر من حيــث ماهية طبيعتها، أي من حيث كونها ذات طبيعة تعاونية أو تنافسية أو صــراعية أو تــتعلق بعلاقات الخضوع والسيطرة (٥٠) . وفي هذا الإطــار نجــد أن فيــبر يجعل من العلاقات الاجتماعية أساسا لعمليات اجتماعــية ذات صــلة بجوهــر الوجود النسقي، ثم مدي كونها علاقات مفــتوحة أو مغلقة ثم أن العلاقة الاجتماعية هي التي تحدد طبيعة الصلة بين النسق الذي تنتمي إليه هذه العلاقات والأفعال التي تشكل أطرافها من ناحية، وبين البيئة المحيطة اجتماعيا كانت أو بيئية من ناحية آخري. بل أن فيبر يصل إلي القول بأن طبيعة العلاقة الاجتماعية، التي تحدد طبيعة الوجود النسقي وخصائص التفاعل السائد في إطاره .

## رابعا: الإنسان والمجتمع ، والحوار بين الإرادة والحتمية .

يدخــل اهتمام فيبر بمناقشة هذه القضية في نطاق اهتمام النظرية الاجتماعية في هذه المرحلة بنشأة الرأسمالي كأحد الأنسياق الاجتماعية وهو النظام الذي عرض له ماركس بالتحليل أساسا، وتناوله دوركيم بإعتباره قضيته الأساسية (٥١).غــير أنــه قبل الدخول في سرد ملامح تصور ماكس فيبر لهذه القضية نــري ضــرورة طرح بعض الاعتبارات الأساسية التي ييسر اسيضاحها فهم وجهة نظر ماكس فيبر بشأنها .

١- أول هــذه الاعتبارات، انه بالنظر إلي نسق القيم يلعب دورا محوريا من وجهة نظر ماكس فيبر فإننا نجده يؤكد أن النظام الاجتماعي لديه ليس نسقا اجتماعيا شاملا ومتماسكا. يتضح ذلك أخلاق وقيم الاعتقاد التي تحكم فعل وسلوك الانسان العادي في ساحة التفاعل الاجتماعي

عن قيم وأخلاق المسئولية التي تحكم فعل وسلوك رجل الدولة. هذا بالاضافة إلي تباين قيم كل فرد عن الفرد الآخر، وهنا نجد أن ماكس فيبر لا يري في نسق القيم نسقا قبليا سابقا علي الافراد عليهم ان يتطابقوا معه، وأنما هو ناتج للاختبارات الفردية. ووفقا لما يذهب إليه ريمون ارون فإننا نجد لدي فيبر تصورا اراديا للقيم يخلقها البشر ومن ثم نجد أن فيبر ينكر بناء من القيم ذات صدق شامل، وأن كل أنسان عليه أن يختار، لأن القيم ليست مطابقة مع بعضها البعض [٥٢] . وفي ذلك ابراز للوجود الفردي علي حساب الوجود النسقي .

٢- يوحي تعدد نماذج الفعل عند فيبر بإفتقاد النسق القيمي لأية قبلية ذات طابع حتمي وإلا لو كان الأمر كذلك، أي لو كان هناك نموذج واحد لفعل، لكان معناه وجود نسقي متكامل ومتماسك يعكس الفعل الأحادي خصائصه [٥٣] .

٣- يؤكد فيبر تصوريا أسبقية الوجود الفردي علي الوجد النسقي، فبالنسبة لماكس فيبر نجد أن الأفراد والأفعال الفردية هي التي توجد فقط، ومن ثم فليست هناك ذوات آخري تعلو علي الذوات الفردية Super individual entities [٥٤] . وذلك يعني النظرة إلي الانسان الاجتماعي علي أنه خالق المجتمع ويتناقص فيبر بهذا الرأي الرؤية الدوركيمية التي تنظر إلي أن الانسان الشخص الفاعل مشتق من المجتمع أساسا [٥٥] ومعني ذلك أن النسق الاجتماعي يعتبر نتاجا مباشرا للتفاعل الاجتماعي بين الأعضاء المشاركين فيه [٥٦] .

٤- أنه باكتمال نشأة النظام الرأسمالي فإنه يبدأ في امتلاك ميكانيزمات استمراره الخاصة به، كالبيروقراطية، وبناء السلطة، والتنظيم النظمي، و التقدم التكنولوجي. بحيث نجده يتحول من موقف المتغير

الـتابع للخلـق الفـردي إلي كونه متغيرا مستقلا يخضع له الوجود الفردي ومن ثم فإذا بدأ الإنسان بارادته في تخليق النسق فإنه ينتهي بالخضوع لحتمية النسق الذي تولي خلقه في البداية. إذ نجد أن فيبر يركـز ــ في هذه الحالة ــ تأكيدا علي الجانب القهري للنسق، هذا التأكيد يذهب إلي ما هو أبعد من مجرد الأتفاق، وأنما يصل إلي حد تحتـيم السلوك الفردي داخل النسق وهو يعني بذلك أن مسار الفعل يتحدد في المقام الأول بواسطة طبيعة الموقف الذي يوجد فيه الفرد، أي بواسـطة الشروط الموقفية إذا أستخدمنا الاصطلاحية الماركسية وهـو يعني بذلك أنه بمجرد أكتمال تأسس النسق فإنه يصبح مدعما لذاته بالنظر إلي قدرته القهرية علي الأفراد (٥٧)

إذا فـنقطة الـبدء فـي تفاعل الإنسان مع الموقف أو النظام الاجتماعي عند مـاكس فيبر هو أن الفاعل له طبيعته الإرادية التي توفر له إمكانية الاختيار، واختيار طريق البناء الرأسمالي، بحيث أن هذه الإرادية لها ملامحها الإيجابية المـتعدد فالفـرد يقـف في هذا العالم يرفض الانغماس في كل ماهو حسي، ويرفض التكيف مع العالم كما هو ويحل محل ذلك اتجاه للسيطرة عليه ومن ثـم يتحول الجهد التقشفي الكائن في خدمة الرب من الاطارات الطقوسية إلي محاولـة للسـيطرة علـي العلاقـات الجوهرية بهذا العالم (٥٨) .وإذا كانت البروتستنتية تدعم فردية الانسان بشكل عام ، فإن الكالفنية فاقت اللوثرية في هذا الصدد إذ تمثل الكالفنية التطرف نحو العنصر الفردي في بناء الشخصية الرأسـمالية .ويـرجع ذلـك إلي أنها أن يكون الانسان طقوسيا فإنها تفصل فرديـته أكثر من لوثر عن حماية وتوجيه الكنيسة ورهبانها له. فوفقا لمنطق الـتقدير أو التحتيم Predestination ليس هناك من يساعده، وليس هناك لأي هيـئة أي نـوع من التأثير علي حالته الروحية وفي ذات الوقت فإن الشيء الذي يهتم به هو مصيره الأبدي، وعلاقته الجوهرية بالله غير أن علاقته بالله

مكانهـــا أعمـــاق قلـــبه ومن ثم فينبغي فصلها عن علاقاته بأي كائن بشري وفضـــلا عـــن ذلـــك ففي مثل هذا الموقف نجد أن الكائنات البشرية الأخري ليست هامة بالنسبة له فقط ، ولكنها قد تكون خطرة عليه، والنتيجة كما يذهب فيـــبر تحقـــق نـــوع مـــن العـــزلة الداخلية للفرد تضعه مباشرة في مواجهة مســئولياته فيما يتعلق بكافة الأمور بحيث يتضمن ذلك استهانة جذرية بأكثر الـــروابط الانسانية قوة، ذلك لأن الله يأتي في مقدمة كل شيء(٥٩) ويتسق مع ذلـــك ماسبق أن أشرنا اليه من سيادة أخلاق الاقتناع لدي الفاعل البروتستنتي وهـــي الخـــلاق التي تفرض عليه أن ينجز الفعل الذي يتسق وقيمة الخاصة دون اعتـــبار لقـــيم الاخرين ذلك لأن غاية الفرد الرأسمالي لا تتفق عادة من التقالـــيد السابقة علي اكتمال تأسيس النظام الرأسمالي(٦٠) يضاف إلي ذلك أن وسائل تحقيق الغاية من الفعل الرأسمالي ــ وهي الكسب الذي لا نهاية له ــ يعـــاد اختـــبارها مـــن جديد لمتطلبات الموقف (٦١) بحيث يؤدي هذا الرفض المـــزدوج للنزعة التقليدية ــ السائدة فيما قبل المجتمع الرأسمالي والتي تعني ان يكـــون الـــرفض علي مستوي الغاية ومستوي ثبات الوسائل ــ إلي تولد روح الـــنظام الرأسمالي التي يعزي إليها تأثير سببي ذو طبيعة دينامية قوية، تبتعد به كثيرا عن الارتباط بالتقاليد والتبعية لها بصفة عامة وشاملة(٦٢)ويؤكد فيـــبر أن هذا الموقف الايجابي من العالم قد تأسس بفعل عوامل متعددة منها أن الشـــخص الرأسمالي تتأسس قيم الاختيار لديه مستنده إلي العلم والمعرفة الحديـــثة (٦٣) بمـــا يوفر له عقلانية الاختيار والسلوك المحرر من التقاليد . ويضاف إلي ذلك علي ما يذهب فيبر أن الإنسان يستوحي قيم العناية الآلهية التي تمثل لديه المتغير المستقل في الموقف الكوني لكي يخلق الواقع وفقا لها وهو المتغير التابع ومن ثم فلكي تأتي فعلا معبرا عن الارادة الآلهية فلابد أن تكون أولا رشيدا وثانيا لابد أن تجاوز التقاليد ، ومن ثم فهو لا يتكيف وإياها، وأنمـــا يكـــون علـــي هذه التقاليد التكيف والرؤية الآلهية . يضاف إلي ذلك

الموقف الفرد البروتستنتي من السلطة الاجتماعية و السياسية ، حيث نجده متحررا من قيودها هي الآخري فالعزلة الداخلية للمؤمن الكالفني، والتشكك في كل شيء لمجرد أنه إنساني ودنيوي ، ورفض عبادة الأوثان كل ذلك يحول إلي خدمة وإنجاز غايات ليست شخصية ، بل أنها تدفعه أيضا إلي ممارسة نوع من التقشف المتشكك في كل ما هو غني وفخم Mighty وهو الأمر الذي يجعل من الحركة الكالفنية في بعض الحيان ذات خطورة بالنسبة للسلطة القائمة خاصة حينما تطلب الأخيرة نوعا من الولاء أو التقدير الشخصي الذي قد يذكر بالوثنية ويعني ان هناك فيما يتعلق بذلك اتجاها قويا لاهتمام الفاعل الكالفني بأعماله وأنه عادة ما يفصل الانسحاب من الصراع حول السلطة الدينوية إلا إذا كان الإنسان يحارب معركة الله، كما هي الحال في جيش كرومويل Cromwell . ما سبق يؤكد خاصيتين أساسيتين ميزتا الشخصية الرأسمالية بحيث لديها روح الارادية والمبادأة، فهي أولا لا تربط نفسها بأية مسلمات أخلاقية مطلقة التصديق، ولو كانت أفكار دينية وأنما يمثل هذه المسلمات سلبية تماما ومن ثم نجد لدي هذه الشخصية ميلا نحو التحرر من التقاليد لتحل نزعة ليبرالية متنورة تشكل أكثر المرتكزت ملاءمة لرجل العمال الرأسمالي بل أن التقاليد ــ حتي في حالة وجودها ــ لديه ليست مدعمة بالدين، وقد يتجاوز الأمر ذلك حينما تخلق لدي هذه الشخصية احيانا عدائية نحو الكنيسة (٦٥) . ويعني غياب التقاليد من مجال حركة الانسان أن أداء الفعل يتم وفقا لقيمه الخاصة، أعن ان تشكيل الواقع لا يتم وفقا لرؤية عامة يخضع لها الفاعل وأنما يتم وفقا لرؤية الفاعل وقيمة الخاصة . أما الخاصية الثانية فتتمثل في موقف ذات الفرد من الواقع المحيط هل يعتبر نفسه جزيئة ساكنة من مكونات هذا الواقع أم أنه جزئية نشطه تهدف إلي تغيير واقعها المحيط لتجعله أكثر ملاءمة في هذا الاطار تري الشخصية البروتستنتية أنه من الملائم العمل والانتاج لصالح امداد الإنسانية

بالسلع المادية يؤكد ذلك ما يذهب اليه فرانكلين حول جهوده في خدمة التحسينات المدينة، فهو يؤكد أنه لما يسعد ويشعر بالكبرياء أن يوفر العمل لعديد من البشر وأن تشارك في التقدم الاقتصادي لمدينتك، حيث يمكن أن يتحقق ذلك عن طريق مشاركة الكثيرين في المشاريع الرأسمالية والتجارية الضخمة (٦٦) . مجمل القول أن الخصائص السابقة تخلق موقفا يتضمن عنصرين أساسين، الأول خلو النسق الاجتماعي الشامل والموقف الاجتماعي ــ كما يعيشه الفرد ــ كوحدة مصغرة لهذا النسق من أية بناءات معيارية أو اجتماعية قد تتصل بالبناء السيكولوجي أو البيولوجي للإنسان من شأنها أن تعوق سلوكه وفعله في المجال الاجتماعي والثاني أن الانسان بقيمه الخاصة المستمدة من البروتستنية وبخاصة الكالفنية كنسق معياري ــ يطرح القيم أو الشرط التي تحكم سلوكه وفعله وبالتالي تؤسس التفاعل الاجتماعي الذي ييسر في النهاية تخليق أو استمرار تخليق النسق الاجتماعي وتصبح محصلة ذلك أن فعل الإنسان يتميز بالارادية المطلقة والقدرة علي الاختيار بحيث يشكل ذلك اتجاها محددا بيد انه إذا كان الأنسان محررا في مجاله الاجتماعي من أي وسيط بين رؤيته البروتستنتية وتشكل واقعة وفقا لهذه الرؤية، فإن الفرد تصبح إرادته في النهاية محكومة بالفكرة أو القيمة المعيارية التي تفرضها البروتستنتية والتي تجعل منه مجرد وسيلة لتحقيق الرؤية الدينية في الواقع الاجتماعي. فالإنسان محكوم من داخله بواسطة القيم والاتجاهات الدينية، بحيث تفرض عليه الاتجاه حتميا في توجه محدد، وأن بدأ فعله حرا وإراديا في ظاهرة، حيث لا قيود علي اختياره. ولكي يوضح فيبر هذه النظرة نجده يقارن حالة الإنسان في المجتمع الغربي الحديث بالإنسان الصيني أو الهندي الذي لم يفلح في تأسيس النظام الرأسمالي في إطار هذه الحضارات العريقة. وذلك من خلال الملاحظات التالية:

١- مــا يتعلق بالكونفوشية كنسق أخلاقي ودورها في صياغة وجهة نظر الفــاعل الصيني وخاصة ذلك الذي ينتمي إلي طبقة الماندارين، وهي الطبقة المؤهلة لكي تقود تطورا رأسماليا، حيث تتبدى الكونفوشية من حيث كونها مذهبا اخلاقيا خالصا. أو أنها مجموعة من المبادئ العملية التــي تفــتقد أي اســاس ميتافيزيقــي. إذ لم يهتم كونفوشيوس كثيرا بالــتأملات الميتافيزيقــية، لأن هذه التأملات بدت- من وجهة نظره- غفــل ولا نفع لها. ونظرا لطابع الكونفوشية العملى فإنها افتقدت أي تصور عن المستقبل، أو اية فكرة عن الخلاص. إذ أهتمت الكونفوشية بالسلوك اليومي في ذاته وليس بالنظر إلي آية غاية أبعد منه[٦٧]. فلدى الكونفوشية أذن نوع من الأستغراق في هذا العالم، الذي تشكل بالنسبة لهــا نظاما تحكمه السماء، وأن العالم الإنساني ليس إلا تكوينا مصغرا إلا تكويــنا مصغرا لهذا العالم. ومن ثم يصبح علي الفاعل الصيني أن يحــاول الحياة وفقا لهذا النظام، وهذا يعني رفض التحرر من الضبط الذاتــي الــذي قــد يخل بهذا التوازن. بالإضافة إلي ذلك فإن الإنسان الرشــيد يتجنــب أي تأثــير لعواطفه، ومن ثم يظل دائما منضبطا ذا كــبرياء، ومؤدبــا. ذلــك يعني أن عليه أن يلاحظ بدقة مقتضيات كل موقف، حيث يتمثل هدفه الرئيسي في ان يعيش في حالة من الأنسجام مــع النظام الاجتماعي موضع الاتفاق العام. ذلك يعني أن الكونفوشية تلغي أية رؤية مستقبلية للإنسان وتقدس النظام القائم للأشياء، ومن ثم يكتســب الفــرد رقية إذا هو قد تطابق مع ما هو قائم. وبذلك تحرمه الكونفوشــية من أية إرادية قد تفرض التجديد أو التغيير فيما هو قائم. ويصــبح النموذج المثالي للإنسان هو ذلك الذي يتطابق مع العالم كما هــو. وهو يختلف في ذلك مع الإنسان البروتستنتي الذي يسعى لتغيير

وإعادة صياغة العالم المحيط وفقا لفكرة يحملها في إطار ما ينبغي أن يكون عليه الواقع المحيط.

٢- أمـــا فيما يتعلق بالبناء القيمي الكونفوشي، فإننا نجد أنه هو الآخر غير ملائم لنمو النظام الرأسمالي في إطار المجتمع الصيني القديم، فتعاليمه لا تؤكـــد كثـــيرا علـــي التخصص الفني وفق الأسلوب الغربي. وإنما ينصب التعليم أساسا علي التعليم الشامل المتصل بالمعرفة العامة، التي تجعلـــه مختلفا عن الجماهير العريضة، بحيث ينظر إليه، إذا ما أنجز التعلـــيم المحـــدد له، علي أنه قد إكتسب بعض المؤهلات السحرية او الكارزمـــية[٦٨]. ومن ثم فافتقاد الإنسان للمعرفة المتخصصة، وأمتلاكه لـــنوع من المعرفة العامة والشاملة لكل شئ يجعله عاجزا عن الإسهام الإيجابـــي فـــي ترقـــية الواقع المحيط به، ولعل الفرض الضمني لهذه المقـــول يتمثل في أن ماكس فيبر يرفض المقولة الماركسية التي ترى فـــي التخصص اغترابا، لأنه يختزل ملكات الإنسان. حيث يؤكد فيبر عـــدم فعالية عدم التخصص هذا ، بدلالة أن طبقة الماندارين الصينية تعتـــبر الطبقة التي أعاقت نمو الرأسمالية الصينية بالنظر إلي الطبيعة الخاصة لعقلانيتها.

٣- يبقـــي بعد ذلك أن نوضح افتقاد الإنسان في الحضارة الصينية القديمة لإراديـــته بالـــنظر إلـــي قوة التنظيمات النسقية المحيطة به وتأثيرها الحـــتمى علـــي ســـلوكه. فـــبدلا من أن يقود نمو الثروة إلي الطريق الرأســـمالي وفقا للأسلوب الغربي، فإنه أتجه أساسا إلي الاستثمار في زيـــادة ملكية الأرض، وسائر الممتلكات المادية. لأن الملكية كانت من الشـــروط الأساسية لانتقاء المندارين الذي سوف يصبح فيما بعد جامعا للضـــرائب. ولقـــد أدى ذلك إلي أن أصبح للتنظيم الاجتماعي العائلي مصـ"ح اساسية في الأبقاء علي نظام أمتحانات الماندارين وسائر النظم

التقلـــيدية الأخـــرى، التي تدعم المجتمع بكامله بواسطه مجموعة من الـــروابط القرابـــية الصارمة[٦٩]. يضاف إلي ذلك أن الجماعة القرابية ذاتهـــا تستند إلي عبادة الأسلاف، حيث تلعب أرواح الأسلاف دورها باعتـــبارها وسيطة بين الله وأحفادهم[٧٠]. ومن ثم أصبحت الكونفوشية والجماعـــة القرابـــية ومختلف العناصر التقليدية الأخرى أكثر قوة من البيروقراطـــية العقلانية فمثلا كان الأمى المسن ذا مكانة وسلطة تفوق أكـــثر رجـــال الماندارين تعليما. وظل نظام التقاضي والعدالة الصينية أبويا، وأبعد ما يكون عن العقلانية والرسمية[٧١].

ويعنـــي ذلك أن سياق الإنسان الصيني هو الذي شكل بالنسبة له متغيرا مستقلا، بحيث افتقد هذا الإنسان إرادته في مواجهة الحتمية النسقية. وأصبح التوازن والأستقرار والتكيف مع ما هو قائم أكثر بروزا من إمكانية التغيـــير، لأنـــه لـــيس هناك مثال تبنته الكونفوشية ينبغي أن يكون التغير والتجديد المستند إلي الإرادية وفقا له.

ولا يخـــتلف الفـــاعل الهندى كثيرا عن نظيره الصيني، وإن كان أكثر منه ملاءمة لإمكانية تطوير نظام رأسمالي. فالبناء الطائفي صارم في صـــياغة الفـــرد، وتحديـــد مجـــال حركته[٧٢]. ويضاف إلي ذلك ما تفرزه الهندوكـــية من تقاليد تؤكد علي أحتقار هذا العالم وإدانته، ومن ثم ضرورة الأنســـحاب منه وعدم العمل علي ترقيته والمشاركة في تفاعله[٧٣]. ويعني ذلـــك أن الهندوكـــية أكـــثر من الكونفوشية من حيث كونها قد أسهمت في تأســـيس فـــرد لا يتطابق ايجابيا مع النظام القائم كما تذهب الكونفوشية، أو يخلقـــه من جديد كما تذهب البروتستنتية. وإنما هي قد فرضت علي فاعليها موقفـــا صوفيا، يعيش في العالم في إطار قوقعة قيمية تجعله بعيدا عن هذا العـــالم، يـــأكل مـــنه ولا يعمل له، يعيش فيه ويتمنى أن لا يكون به، يدينه

ويحـــتقره ومن ثم يعجز عن المشاركة فيه أو التكيف وفقا له. بحيث يشير كل ذلك إلي موقف سلبي كامل أمام الحتمية النسقية المتطرفة.

## خامساً: البيروقراطية والسلطة، آلياتها في الضبط والسيطرة

أنبـــثق اهـــتمام مـــاكس فيبر بالبيروقراطية والسلطة كوسائل فعالة للضبط والســيطرة مـــن خلال أهتمام علم الاجتماع لديه بقضية في مواجهة أهتمام علـــي الاجـــتماع أساسا بمشكلة النظام[٧٤].والحق أن النسق النظري لماكس فيـــبر فـــيما يـــتعلق بهذه القضية قد مر بمرحلتين، حيث أهتم في المرحلة الأولـــي – وهي المرحلة التي كان الفرد البروتستنتي يتولي خلالها تأسيس الـــنظام الرأسمالي بناء علي قيمة البروتستنتية بقضية الضبط الاجتماعي . حيث يحاول الفرد من خللا تفاعله مع الآخرين السيطرة علي أفعالهم، ومن ثم يفرض عليهم المعاني أو التحديدات الخاصة به علي المواقف التي تضمه والآخـــرون. وخـــلال هـــذه المرحلة يبدو النسق الاجتماعي كناتج للتفاعل الاجتماعي، وتتحدد طبيعته بالنظر إلي علاقات الضبط والسيطرة بين البشر المشـــاركين فـــي تأســـيس الـــتفاعل[٧٥]. بيد أنه في أعقاب تأسيس النسق الاجتماعـــي، واكـــتمال ميكانيزماته الطبقية، تتحول العلاقة من كون النسق متغـــيراً تابعـــاً للفرد الذي اعتبر المتغير المستقل إلي كونه متغيراً مستقلاً يصـــبح البشـــر في إطاره متغيرات تابعة له، وهي المرحلة الثانية في نمو النسق الرأسمالي كما تصور ذلك المشروع النظري لماكس فيبر. حيث يبدأ هـــذا النظام بمجرد اكتمال بنائه في الاستمرار وفقاً لميكانيزمات خاصة له تختلف كثيراً عن ميكانيزمات نشأته[٧٦]. في هذه المرحلة تتخلق لدي البشر حاجة إلي النظام الاجتماعي، ويصبح الضبط ولا شيء غيره هو ما يحتاجه البشـــر الذيـــن قـــد يصيبهم القلق والتوتر إذا اهتز النظام الاجتماعي لفترة وجيزة. ويصيبهم العجز إذا هو قد إنهار أو تمزق من حولهم[٧٧]، وبالنسبة لماكس فيبر تصبح القضية الأساسية هي كيف نواجه هذا النظام الذي تؤدي

البيروقراطية دوراً محورياً في حماية البشر من بطش أسلوب الحياة البيروقراطي الذي يهدد بمحاصرة أرواحهم.

ذلك يفرض علينا توضيح طبيعة وأنماط أجهزة الضبط التي يمتلكها النظام الاجتماعي للسيطرة علي أفراده وإخضاعهم بتحقيق أهداف وغايات قد لا تنتمي إلي فرديتهم، ولكن تنتمي أساساً للوجود الجمعي الذي يشكلون جزءاً منه. وتعتبر البيروقراطية والسلطة أهم أجهزة الضبط والسيطرة في النظام الرأسمالي. حيث تلعب البيروقراطية دوراً هاماً في ضبط وتنظيم عمليات الإنتاج وتفاعلاته، كمجال اجتماعي. بينما تلعب السلطة دورها في تنظيم وضبط التفاعل الاجتماعي الذي يشارك فيه الفاعل كحيوان اجتماعي / سياسي. ولتناول البيروقراطية كظاهرة وتنظيم رأسمالي، نحاول استكشاف طبيعتها وماهيتها. فالبيروقراطية كما يعرفها فيبر هي ميكانيزم يستند إلي النظام، وفي موضع آخر يؤكد أن الخاصية للرأسمالية البرجوازية الرشيدة هي ( التنظيم الرشيد للعمل الحر) وهي تعني الشكل الرئيسي للتنظيم الاجتماعي الذي نطلق عليه البيروقراطية. والبيروقراطية كما يتناولها فيبر ظاهرة معقدة، حيث تشير إلي التنظيم الذي يهدف من وجهة نظر المشاركين فيه- إلي تحقيق غاية لا شخصية an imperdonal end . ومن ثم فهي تستند إلـي أسلوب لتقسيم العمل يتضمن التخصص بالنظر إلي عديد من الوظائف الواضحة التباين وفقاً لبعض المحكات الفنية. وهذا التقسيم يرتبط به تقسيم آخر للسلطة ينتظم بشكل تدريجي، بحيث يتضمن عضواً مركزيا علي قمته ومؤهلات فنية من جانب المشاركين فيه. حيث يتحدد أو يدرك دور كل مشارك علي أنه الوظيفة التي يتصرف من خلالها بالنظر إلي السلطة المنسوبة لهذه الوظيفة وليس إلي تأثيره الشخصي. ويتضمن ذلك تمييزاً واضحاً في عديد من الجوانب بين علاقات الفاعل وتصرفاته في وظيفته من ناحية، وبين علاقاته وإمكاناته الشخصية من ناحية أخري، وتتضمن

البيروقراطية بشكل عام الفصل بين العمل والمنزل، بين مالية الوظيفة وبين الـثروة الخاصة والشخصية، وقبل كل شيء بين السلطة في المسائل المتعلقة بالوظيفة وبين التأثير الشخصي خارج نطاق العمل(٧٨). ويؤكد ماكس فيبر أن التنظيم البيروقراطي يمتلك بعداً تاريخياً بارزاً، ويذكر أمثلة ذلك بست حالات تاريخية واضحة، نذكر منها البيروقراطية التي سادت عصر الأسرة الحديثة فـي مصـر الفرعونـية، وكذا العصور الحديثة التي سادت الإمبراطورية الرومانـية، والإمـبراطورية الصـينية، والبيروقراطية التي سادت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، ثم البيروقراطية التي سادت الدولة الأوربية الحديثة، ثم البيروقراطية التي سادت المشروع الرأسمالي الحديث ذا النطاق الشامل(٧٩). ثـم يـتجه فيـبر لتوضـيح خصـائص البيروقراطية – التنظيم والإنتاجي والسلطوي للمشروع الرأسمالي – فيجدها بما يلي :

١- أن المرتب Salary هو الخاصية الأساسية للبيروقراطية، حيث يعتبر المرتب أسلوبها الوحيد في المكافأة. بحيث لا ينظر إلي المكافأة علي أنهـا تعادل التضحية بقدر اعتبارها أجراً يتصاعد بتصاعد المركز الاجتماعـي للموظـف في إطار التنظيم. ويؤكد فيبر في هذا الصدد علـي تباين التخصص والتدريب. واستقلال المكافأة ( المرتب ) عن أية مؤشرات غير بيروقراطية.

٢- أنـه عـادة مـا ينظر إلي الوظيفة علي أنها عمل أو حرفة تتطلب إخلاصـا موضـوعياً محدداً وأعمال الوظيفة التي تشكل التزامات مفروضة علي القائم بها.

٣- أن مـا يميز البيروقراطية الحديثة هو استقلالها النسبي عن الدولة، فالمفـروض أن التنظيم لا يفرض عليه أسلوبه التنظيمي من الخارج بواسـطة الدولـة. أو أن هـذا التنظيم ما هو إلا تقليد لبيروقراطية الدولـة. حيـث تخضع الأخيرة لمؤثرات كثيرة. هذا وقد تخلفت من

العوامـل فـي إطار كل من إنجلترا والولايات المتحدة ما أدي إلي اعتبار البيروقراطية الرأسمالية ذات نمو مستقل بشكل أساسي.

٤- إباحة درجة معينة من التخصص الوظيفي وتقسيم العمل علي أساس فـردي بدون وحدات عالية التنظيم، ويصدق ذلك إلي حد كبير علي مـرحلة الصـناعة الحرفـية. وفضـلاً عن ذلك شكلت المتطلبات الموضـوعية المتعلقة بالكفاءة عاملاً هاماً في التنظيم الدقيق للوحدة المنتجة التي اتخذت طريقها نحو الأشكال البيروقراطية.

٥- تعتـبر التكنولوجـيا، إلـي حـد كبير، ذات اتصال دقيق بالتنظيم البيروقراطـي مـا دامت مسئولية عن كثير من تقسيم العمل الدقيق. فالمشـروع موجه أساساً نحو السوق الذي تسوده المنافسة في حالة غـياب الضـبط. ومـن هنا يصبح دور ميكانيزم الثمن مضمناً في مفهـوم فيـبر عن النظام الرأسمالي، أعني تطوير وسائل فنية تيسر التبادل، كالمال، نظام التسليف، والبنوك.

٦- أن البيروقراطية والدور الذي تؤديه في إطار النظام الرأسمالي يماثل دور صـراع الطـبقات عـند مـاركس ودور المنافسة عند وارنر زومـبارت(٨٠) من حيث كونها الظاهرة المحورية في النسق، والتي تشكل أساس التفاعل الاجتماعي.

بيد أنه اكتمال بناء البيروقراطية واتساقها مع بناء النسق الرأسمالي فأنها تبدأ في ممارسة مجموعة من الضغوط علي الفرد بحيث يستجيب لمتطلباتها. ذلك أن التنظـيم البيروقراطـي، علـي ما يذهب فيبر يتطلب تكريساً موضوعياً للوظـيفة موضع التخصص والاستعداد للتلاؤم مع المتطلبات الرشيدة لإطار معقـد مـن الجهـود المتخصصة والمتآزرة، وذلك يتضمن بالطبع خضوعاً للـنظام داخـل حدود الوظيفة. ومن الواضح أن روح الرأسمالية تعتبر حالة

خاصة من الروح الحرفية أو المهنية التي تعتبر اتجاها محددا يحتاجه الأداء الوظيفي الفعال للبيروقراطية(٨١).

وتكشف مقارنة البيروقراطية الرأسمالية بالبيروقراطية الصينية علي سبيل المثال عن أنه وأن امتلكت الأخيرة ميكانيزمات الضبط الملائمة والقادرة، إلا أنها لم تسلك الطريق الذي يسلم بالصين إلي إنتهاج الطريق الرأسمالي، فما هي الخصائص التي أدت بها إلي عكس أداء البيروقراطية الغربية. وتتمثل أولي خصائص البيروقراطية الصينية التي أعاقتها عن النمو العقلاني في طبيعة دولة الإمبراطورية الصينية، إذ تميزت هذه الدولة بمظهرين أساسيين، فهي من ناحية تتميز بكونها دولة ثيوقراطية ومن ثم فهي علي هذا النحو تختلف عن البناء السياسي المسيحي. حيث يعتبر الإمبراطور في الحضارة الصينية ابن السماء، وينظر إليه علي أنه الوسيط الأساسي بين النظام الألهي من ناحية وبين المجتمع الإنساني الواقعي من ناحية أخري، ومن ثم يشكل الإمبراطور جوهر الاهتمامات الطقوسية. حيث قد ينهار المجتمع إذا لم ينجز الطقوس المتعلقة به. ولقد أدي هذا الوضع الديني إلي عدم تركيز القوة Power السياسية في يد الرهبنة الوراثية التي يمثل قمتها الإمبراطور. وإنما تركزت في يد طبقة من الوزراء البيروقراطيين المسماه بالماندارين، والتي أن كانت لها ممارستها البيروقراطية المتميزة في بعض الجوانب إلا أنها عجزت أن تقود تطوراً بيروقراطياً علي غرار البيروقراطية الغربية(٨٢). فمن أهم ملامح الماندارين أنها فئة من المتعلمين تعليماً نظرياً يتأكد من خلال مرورهم بعدة امتحانات، قد تلعب المحسوبية دوراً في شغلهم لمكانتهم في إطار البناء البيروقراطي لثلاث سنوات يؤدي فيها دورة في مقاطعة غير تلك التي ينتسب إليها، وبعد هذه المدة ينتقل إلي مقاطعة أخري. وبرغم استقلال طبقة الماندارين عن السلطة السياسي العليا فأنها لم تحاول احتكار الوظائف أو أن تكون ذات وزن سياسي، وإنما ظلت كطبقة مفتوحة

تستوعب أي شخص يساعده مستوي تأهليه أن ينجح في اختبارات الماندارين. في إطار ذلك نجد أنه قد ظهرت في إطارها مجموعة من العوامل التي جعلتها عاجزة عن تطوير بناء بيروقراطي فعال وملائم، من هذه العوامل ما يلي:

١- تشكلت البيروقراطية من مجموعة الماندارين الذي يمثلون قمة التنظيم البيروقراطي، التي يخضع لها موظفين، يعينهم عضو الماندارين من ذات المقاطعة التي يتولي أمرها ليقوموا بالوظائف والأعمال الأساسية. من هنا أصبح النسق الإداري في موضع لا يستطيع فيه أن يفرض سياسات قوية ضد المصالح المحلية أو أصبح مفروضاً عليه أن يبيح قدراً كبيراً من الاستقلال للجماعات المحلية. ولذلك بقيت البيروقراطية بناء فوقياً لم يتغلغل بعمق في البناء الاجتماعي لكي يفرض ضبطاً أو سيطرة مباشرة علي الفرد في إطاره كما أنجزت البيروقراطية الغربية ذلك.

٢- أنه نتيجة لأنه مفروض علي عضو الماندارين أن يرسل قدراً من الضرائب إلي السلطات العليا، بالإضافة إلي مسئولية الأنفاق علي الموظفين الإداريين المحليين بما فيها مكافأته الشخصية. كل ذلك في إطار قصر مدة شغله لوظيفته في إطار المقاطعة. بحيث اندفع عضو الماندارين إلي جمع أكثر قدر من الضرائب لكي يستعين بها في مواجهة ما هو مطلوب منه، وأيضاً لكي تساعده علي الحياة حينما يتقاعد عن الوظيفة. في إطار ذلك فأنه لم يكن يهتم بالاصطلاحات المتعلقة بتطوير المقاطعة.

٣- أن البيروقراطية الصينية لم تكن بيروقراطية متخصصة، فلم يكن ثمة حاجة لمؤهلات فنية خاصة تلزم وظائف محددة، هذا بالإضافة إلي أن التدريب الضروري لشغل الوظيفة لم يكن بالضرورة فنياً أو

متخصصـــا، إذ كـــان كـــل مـــا يلزم المرشح لكي يقبل في الجهاز البيروقراطي علي أن يحصل علي قدر من المعرفة الكلاسيكية التي تؤكد فيه أن يكون رجلاً مهذباً يستحق مكانة الماندراين. ولقد زادت هــذه الحالة من اعتماد الرئيس ( شخص الماندارين) علي موظفين، ومــن ثـــم فقد أصبح ذلك عائقاً أمام نمو البيروقراطية والعجز عن إدراك تفاصـــيل الإدارة الروتينـــية. ومن ثم فقد بقيت البيروقراطية الصـــينية علـــي الحـــال التـــي أطلق عليها فيبر بيروقراطية أبوية Patrmonial (٨٣).

ولا تختلف البيروقراطية الهندية كثيراً عن ذلك، حيث شاركت البيروقراطية الصينية في ذات العوامل التي أعاقت نموها وتطورها علي الطريقة الغربية. ومن أهمها عدم التدريب المتخصص بالإضافة إلي افتقاد أي تصور مستقبلي شامل يعتبر غاية للفعل البيروقراطي أو لمجموعة الأفعال الفردية المكونة.

أما فيما يتعلق ببناء السلطة وهي القضية الثانية التي أهتم بها ماكس فيـــبر فيرجع اهتمامه بها - ككل علماء الاجتماع الآخرين من أمثال دوركيم وماركس، توكفيل، وكروبتكين وبورك وآخرون غيرهم - كرد فعل لأحداث الثورة الفرنسية. حيث تأثر جميع هؤلاء المفكرين بتيارات التغير الاجتماعي التي التغير الاجتماعي التي طرأت علي المجتمع في أعقاب الثورة الفرنسية، إذ خضعت البناءات التقليدية للسلطة لتغيرات أساسية وفقاً لتصورات متنوعة. وتخلق اتجاها ثورياً يري استبدال البناء التقليدي ببناء يؤسسه العقل. ومن ثم أفرز هذا الاتجاه أهمية بناء السلطة العقلاني، بينما رأي آخرون أن الاستبدال يجب أن يكون بواسطة السلطة الكارزمية، وهو الاتجاه الذي يرجع في عمقه إلـــي الحضور الفعال لشخصية نابليون. بذلك تخلفت ثلاثة تصورات أساسية للسلطة هي السلطة التقليدية والعقلانية والكارزمية، اعتبرت بذاتها المقولات الأساســية لعلــم اجــتماع الســلطة عند ماكس فيبر. مثلما شكلت المقولات

الأساسية لرد فعل الفكر الغربي لأحداث الثورة الفرنسية خلال القرني التاسع و العشرين. وما فعله فيبر في هذا الصدد أنه حولها إلي نماذج تساعده علي دراسة أنساق السلطة في مختلف أقسام النظام الاجتماعي الأشمل، خلال التاريخ الغربي وغير الغربي(٨٤).

وفي تناوله لقضية السلطة يحاول فيبر التمييز بين مفهومين أساسيين في هذا الصدد هما مفهوم القوة Power ومفهوم السلطة Authority أو السيطرة Domination ويتحدد مفهوم القوة لديه من خلال فرصة الإنسان لفرض إرادته علي آخر، حتي ولو كان ذلك في مواجهة مقاومة الآخر. من هنا توجد القوة داخل إطار التفاعل الاجتماعي، وتشكل أساس التمايز من خلال فرصة أحد البشر لفرض إرادته علي الآخرين. هذا مع ملاحظة أن الفرد الذي يقصده فيبر قد يكون مجتمعاً كالولايات المتحدة أو فرنسا أو جماعة من البشر في إطار ساحة التفاعل الاجتماعي. وتتزايد فعالية القوة أو تتضاءل بالنظر إلي قدرة الفاعل علي تحقيق خضوع الآخر لإرادته بدرجة أكثر أو أقل. أما بالنسبة للسلطة فهو يعرفها بفرصة السيد علي تحقيق طاعة هؤلاء الذين يدينون نظرياً له. ويكمن الاختلاف بين القوة والسلطة في أن مفهوم القوة لا يتضمن فكرة الحق في الأمر وواجب الطاعة، بينما تتضمن السلطة إمكانية تحقيق الطاعة الإرادية من جانب الخاضعين• وهو بالشكل أساساً لمقولة الشرعية (٨٥). في إطار ذلك نجد أن هناك ثلاثة نماذج أساسية للسلطة نعرض لها بإيجاز فيما يلي:

تعتبر السلطة التقليدية Traditional Authority أول نماذج السلطة في هذا الصدد، وهي تعرف بأنها تقليدية ما دامت مشروعيتها تستند إلي قدسية النظام. وأن هذه القدسية المتعلقة بالنظام وبمكانة السلطة في إطاره يعتقد في إطاره يعتقد في وجودها نظراً لأنها منحدرة من الماضي(٨٦). ويؤكد بارسونز في هذا الصدد أن استخدم فيبر لمصطلح القداسة – المتعلقة بالجوانب التقليدية

Sznctity يرتــبط بالمشروعية ويبرز ارتباط ذلك بالجانب المعياري. وبذلك يمكــن أن يقــال أن فيــبر قد أسس ارتباطا قويا بين مشروعية أحدي نماذج السلطة وبين النزعة التقليدية [٨٧]. ومن ثم فليست القوة أو القهر، أو العقلانية المتضــمنة هي المتغير الفعال الذي يدعم السلطة التقليدية. وإنما هي تكتسب قدســيتها بالــنظر إلي القيمة أو الدعم الذي يتوفر لها من خلال البعد الزمني الطويــل الــذي وجدت خلاله، أو بالنظر إلي عدد الأشخاص المقدسين الذين شــاركوا فــي تأسيسها. ومن ثم فالمشروعية هنا تتأسس بالنظر إلي التقاليد، والاعــتقاد بــأن السلطة موضع اهتمام قد وجدت دائماً. وفي إطار ذلك فأننا نجــد أن أكثر المجتمعات فعالية لديها قدر من السلطة ذو طابع تقليدي ينبثق من الأفعال الأساسية لهؤلاء الذين يشاركون في المجتمع ويعيشون في إطاره [٨٨]. ويعتبر السلطة العقلانية Rational authoriry هي النموذج الثاني للسلطة، ويري فيبر أن أفضل تمثيل لهذا النموذج يتمثل في البيروقراطية. وهو يؤكد أننا في إطار هذا النموذج نواجه بنسق من القواعد التي تطبق قانونياً وإرادياً وفقــاً لمجموعــة من المباديء المؤكدة والثابتة بين كل أعضاء الجماعة [٨٩]. وكمــا يفــترض مصــطلح السلطة العقلانية، يعتبر هدفها الأساسي في هذا الــنطاق هــو تأســيس مجموعــة مــن العلاقات بالنظر إلي مباديء العقل والمعقولية. ولا علاقة لهذه السلطة بالعمر أو الزمن أو درجة القداسة المتعلقة بالأشــخاص المؤسسين لها. إذ يعتبر التنظيم البيروقراطي متفوقاً في ذاته إذا هــو قــد حدد المكانات والأدوار المتعلقة بالتنظيم وكذا المعايير التي تحكمه بالنظر إلي التخطيط والحساب الخاضع للعقل. ويؤكد فيبر أنه لم يوجد تنظيم عقلانــي بدرجة كاملة [٩٠]. أما النموذج الثالث الذي صاغه فيبر فهو نموذج الســلطة الكارزمية Charismatic Authority التي تنتمي إلي شخص ما يعتقد أنــه يمــتلك بالنظر إلي قدراته السحرية Magical أو الدينية Religious أو العسكرية Military خاصية تنبؤية سامية Genuis or prophetic يعتقد أن بقية

البشر يفتقدونه. ويعتبر كل من يوليوس قيصر أو نابليون من بين الأمثلة الشهيرة للسلطة الكارزمية.

حيث يعتبر كل منهما مؤسساً لنسق من المعتقدات الذي يتطلب ولاء من بين البشر. وفيما مضي ارتبطت السلطة الكارزمية بالدين، أما في العصر الحديث فأنها تميل لأن تتخذ طابعاً سياسياً، ولقد كان نابليون بقدراته الفعالة هو الذي ألهم كثيراً من مفكري القرن التاسع عشر سواء منهم اليسار أو اليمين السياسي بهذا النموذج. ويعتقد ماكس فيبر أن معظم التغيرات الكبري في تاريخ المجتمع الإنساني كانت نتيجة لأفراد ذوي إمكانات كارزمية، وترجع نظريته عن التغير ذاتها إلي فرض الإنسان العظيم. ويعتبر فيبر أكثر من أي عالم اجتماعي أخر أهتم بقضية التغير الاجتماعي، ولكن من خلال فعالية الإنسان الفرد. إذا نجده يؤكد كثيراً علي أهمية الفرد المزود بإمكانات كارزمية قادرة علي إخضاع أعداد كبيرة من البشر(٩١).

ويؤكد فيبر أن المصير المحتوم للبيروقراطية الكارزمية أن تصبح روتينية، أعني أن تنتقل من الحضور الفعال للإنسان الكارزمي لكي تصبح تقاليد أو تتحول إلي بناءات ذات طابع عقلاني من مستوي رفيع. مثال علي ذلك الكنائس الكبيرة الحديثة أو كثير من التنظيمات الرسمية الشاملة التي تأسست بشكل أساسي من خلال فاعلية ذوي الطاقات السامية نسبياً. ولقد اعتقد فيبر أن السلطة الكارزمية أو القيادة الكارزمية، والتغير ذو الأساس الكارزمي تنسحب الآن كلها من علي المسرح الأوربي في مقابل النمو السريع للبيروقراطية القوية في كل أقسام المجتمع الغربي. وأنه لم يعد هناك مجال لحياة الكارزما أو التقاليد، حيث ستحل البيروقراطية محلهما معاً، وأن القضية الأساسية التي سوف تطرح نفسها سوف تتعلق بكيف نحمي أنفسنا من السيطرة القوية لأسلوب الحياة البيروقراطي(٩٢).

خاتمة لذلك نري ضرورة توجيه الاعتبار الي مسألتين تتعلقان بعلاقة السلطة والبيروقراطية كميكانيزمات تنظمية للسيطرة والضبط بقيمة النظام والفعل الاجتماعي كقضايا جوهرية. أما المسألة الأولي فتتعلق بأن الإنسان الذي أسسه فيبر بدأ بداية اختيارية وإرادية علي النحو الذي تصوره جان روسو في علاقته بالنظام الاجتماعي ومن حيث طبيعة سلوكه. بحيث برزت الهوية الفردية علي الذاتية النسقية. في إطار ذلك فأن النشأة المجتمعية تابعة للإنسان ومن خلقه. غير أنه علي الرغم من ذلك نجد أن فيبر ينتهي إلي نهاية تقترب كثيرا من التصور الذي طرحه توماس هوبز والذي يري خضوع الفرد للنظام بعد تأسسه واكتماله. أي أن يصبح فعله لا إرادياً يخضع لإطار الفعل الكلي للنظام. أما المسألة الثانية فتتعلق بالتمييز الذي صاغه فيبر بين وأخلاق الاعتقاد كموجهات للفعل. فإذا عبر الحاكم عن أخلاق المسئولية فهو بذلك يعبر عن أهداف ومصالح ترتبط بإرادة المجتمع والصالح العام. ومن ثم فالفعل الذي تحكمه هذه الأخلاق يختلف كثيراً عن الفعل الذي تحكمه أخلاق الاعتقاد والذي يسود المجالات الفردية للتفاعل والسلوك. بيد أن المعضلة الأساسية في هذا تتمثل في أن فيبر عجز عن توضيح طبيعة العلاقة بين أخلاق المسئولية من ناحية وأخلاق الاعتقاد من ناحية أخري. وهي فجوة ظلت في بنائه الأخلاقي أو منظومة القيم التي تحكم حركة الإنسان والمجتمع الفردي والفعل المجتمعي. والتفاعل الاجتماعي الشامل.

## سادساً : نظرية ماكس فيبر ، نظرة عامة .

المؤكد أن نظرية ماكس فيبر عن الفعل الاجتماعي كانت تشكل جوهر الاهتمام الأساسي في كل تنظيره الفكري.ومن هنا وجدنا لديه بناء متكاملا من حيث مستوياته المنهجية أو العينية والحق أنه يمكن للقول أن هذه النظرية مثلث أكثر النظريات إكتمالا فيما يتعلق بالتفاعل الاجتماعي. فنحن نجد أن لديه منهجاً واضحا لإدراك هوية الفعل وأن بدأ بداية ذاتية إلا أنه ينتهي

بـــنهاية موضوعية أساساً، وهي مزاوجة رائعة نجح فيها ماكس فيبر بحيث نستطيع القول بأنه قدم حلا أساسيا وجوهرياً لهذه المعضلة المنهجية.

هذا بالإضافة إلي ابتكاره للنموذج المثالي كوسيلة منهجية قياسية يقيس علي أساسها نماذج الفعل الواقعي، للكشف عن مدي انحرافها عن المثال وعوامل هـــذا إلـــي جانب أن النموذج المثالي كما طرحه ماكس فيبر كان يمثل إطاراً موضـــوعياً – وأن تأســـس ذاتـــياً – تشق منه الفروض التي يمكن أن توجه البحـــث الواقعـــي.وذلـــك كرد فعل للمواقف الأيديولوجية التي بدأت تختلط بالقضـــايا العلمية للنظرية السوسيولوجية والتي سادت الماركسية والوضعية بامتداداتها الدوركيمية. إلي جانب ذلك أكد ماكس فيبر كثيراً علي أن الرؤية العلمـــية هي دائماً جزئية لأنها نسبية، ومن ثم فقد طرح منطق إمكانية صدق المواقـــف النظرية المتباينة، بل أن مشروعه النظري في هذا الصدد لم يكن محاولة لرفض الماركسية علي ما يذهب زاتيلن مثلاً ، ولكنه أتجه أساساً إلي تأكـــيد إمكانية صدق فرضيات مضادة للفرضيات الماركسية، مع التأكيد علي صـــدق الـــنظرية الماركســـية ذاتها دون أخلاقها. ومن هنا فلقد أسس ركائز موضـــوعية صـــياغة نظرية إجتماعية شاملة. أما علي المستوي العيني فلقد بـــدت إســـهاماته عملاقة وراسخة، فهو الذي بين الصلة الواضحة بين كون الفعل الفردي أساساً للنظام الاجتماعي والفعل الجمعي، ثم كيف يتحول الفعل الفردي من موقف المبادأة إلي الخضوع لميكانيزم التنظيم والسيطرة من قبل النظام الشامل الذي أسسه الفعل الفردي. بالإضافة إلي ذلك حدد فيبر الملامح التكوينية لنماذج الفعل الاجتماعي والأبنية الاجتماعية المرتبطة بها، في حالة من الثبات، ثم في حالة من الدينامية حينما أوضح كيف تنساب أو تتحول أي من نماذج الفعل هذه إلي النماذج الأخرى. ذلك كله في إطار تحليلات مقارنة وشـــاملة. تضـــمنت الحضارات الصينية، والهندية أو الفرعونية، والحضارة الغربـــية الحديثة. ومن ثم فليس غريباً أن نجد أن النظرية الاجتماعية الحديثة

بكافه مواقفها النظرية المتباينة، وضعية . كانت او سلوكية. او راديكالية. كما هو الحال في الاتجاهات النقدية، كلها تستلهم المقولات النظرية لماكس فيبر الأكثر فعالية واثمارا.


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET